الثقافة

اللغة

العولمة

تأليف

الأستاذ الدكتور/ مرزوق بن تنباك

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الثقافة
اللغة
العولمة

تأليف
الأستاذ الدكتور / مرزوق بن تنباك
الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com
www.mtenback.com

ح مرزوق صنيتان تنباك ، ١٤١٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
تنباك ، مرزوق صنيتان
الثقافة اللغة العولمة .- الرياض.
١٠٠ ص؛ ١٤×٢٢سم
ردمك ٢ - ٥٩٤ - ٣٥ - ٩٩٦٠
١- الثقافة ٢- العولمة أ- العنوان
ديوي ٣٠١,٢١ ١٩/٤٣٨٥

رقم الإيداع : ١٩/ ٤٣٨٥
ردمك : ٢ - ٥٩٤ - ٣٥ - ٩٩٦٠

www.mtenback.com موقع الدكتور مرزوق بن تنباك

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

www.mtenback.com

هذه ثلاث محاضرات، ألقيت متفرقة في العام الماضي، أعدتُ النظر فيها، فحزفت منها، وأضفت إليها، وجمعتها في غلاف واحد، ونظمتها بسلك الثقافة الشامل، وأعددتها للنشر، أرجو أن تجد فيها مايفيد وينفع وإن قلّ.

مرزوق

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الثقافة

عندما أتحدث عن الثقافة فإني لا أريد أن أذهب بوصف الثقافة إلى عمق سحيق من الموروث الذي اجترَّته الأفكار، وتعاقبت عليه حقب الزمان،وأضاف إليه كل جيل من أجيال الأمة تصوره للحياة أو مايخطر في باله من خطرات وآمال وأحلام، يهيم بها حبّاً، وقد يحمل عليها مالا تحتمله مما ليس فيها، وربما بالغ في ذلك حتى يغيب الأصل القليل من المعرفة في سديم الأفكار البشرية المتلاحقة، فينتقل إلى كم هائل من الموروث المتتالي الذي تطمر كل حقبة منه حقبا سبقتها، حتى صار التراكم الموروث داء أصاب الثقافة النظرية، بالترهل والانبعاج، عربية بحتة كانت أم عربية إسلامية وتحول نثيل هذا التراكم منجما لا ينضب لكل من يريد أن يقول رأيا أو يحتج لمذهب، إذ يجد من نتائج العقول المتوقدة الذكية أو تلك المريضة الغبية مايسد حاجته ويقيم حجته، فيأخذ منه مايشاء ويدع مايشاء، وينسب كل ما أخذ واختار إلى رأي سابق وقول مأثور. وتلك معضلة تجدها فيما تقرأ عندما يحدث اختلاف بين فريقين من أهل هذه الثقافة، أو كلما مرَّ ظرف أوتغيرت حال، ألفيت منجم الثقافة الموروثة يمدُّ كل ناقل بحاجته من الأدلة

www.mtenback.com

وغرضه من الاستشهاد، بحيث لا يستطيع أحد أن يصل إلى رأي قاطع، أو يبقي وجهة نظره دون دليل يُسندها أو علة يعتل بها.

وإذا كان الركام الثقافي حسنة في حال القدرة على تمييز الجيد منه من الرديء، وحسن الاختيار للصالح بحاسة انتقائية واعية، فإنه يصبح سيّئة عندما يتحول للتسويغ، أو ينساق للهوى، وميل النفس. وسيئة أيضاً حين يكون ترديداً أبله لنصوص جامدة أتى عليها طوفان الحياة، وأعاصير الحقب الخوالي، فحجَّرتها وحوّلتها إلى آطام تدل على حياة بشرية، غير أنها بعيدة ماضية مع التاريخ موغلة فيه، تشير إلى طبيعة الماضي بكل أبعاده وملامحه وتشكلاته، غير أنها لايمكن أن تكون جزءا من الحاضر كما لا يمكن أن تستجيب له ولا أن تواكبه.

إن الاهتمام بهذا الشكل من موروث الثقافة والتراث يحمل على الماضي هموم الحاضر ويحول الحي إلى رمم الأموات، ويستغيث بالأجداث، لينفخ فيها وهم الحياة، وينظر إليها نظرة المشوق الولهان بالآثار الحبيبة حين يلوذ بها ويحتمي بشواهدها، ويتغنى بما حققته في حياتها، ويتحول بشعوره وتفكيره إلى جزء من الماضي، أو إلى قطعة متحجرة من التاريخ، فلا تفارق خياله، وكلما واجهته الحياة بأعبائها

www.mtenback.com

وحاجاتها ومتطلباتها، نظر إلى الماضي وبحث عن حلول مشكلاته الحاضرة في ماضيه السحيق.

وما أكثر مَنْ هذا شأنهم، ممن يردون موارد الثقافة والتراث، ويصدرون عنهما حتى غطت الكثرة بأهوائها جهود القلة وصفاءها، حين تعاملت مع فضيلة الوهج العلمي والعقلي، واعتمدت على المعرفة الإنسانية المشتركة علّها تأتي بإشراقة جديدة للثقافة.

ولا ننكر وجود قلة من أهل الثقافة تعاملت مع الموروث بوهج عملي وعقلي باهر، إلا أنهم كانوا ولا يزالون قلة لا يستطيعون غلبة دهماء الترديد والاجترار، لما خلفه الإرث الثقافي والاجتهاد البشري من تراث يعده الكثيرون تراثًا مصونًا، ويقدسونه لا لخير فيه وإنما لمضيه مع التاريخ، وإيغاله مع الزمن.

وفي مقابل العدد الكثير من المثقفين الذين يلتزمون بنسق الثقافة التراكمية، جاء جيل من المتطلعين إلى محيط أوسع من محيط الثقافة التقليدية التراكمية الرأسية، ونظروا إلى ما وراء حدود الثقافة الموروثة، فامتدت نظرة هؤلاء أفقيًا إلى ثقافات العالم ولا سيما الغربي منها، لأنها ثقافة فرضت على واقع العصر بقوة سياسية وعسكرية واقتصادية، وهي بلا شك مؤثرات جديرة بأن تحول

www.mtenback.com

أنظار طلاب الثقافة إلى هذا المدِّ الزاخر من الحياة بكل مضامينها وأبعادها الثقافية وغيرها.

وقد تهيأت النفوس لاستقبال الحضارة الغربية وما ينتج عنها من فكر نظري ومادي وثقافة محصنة بالحرية، مؤملة أن ذلك قد يساعدها في التحرك في محيط الثقافة الإنساني الأشمل، لكنها مع الأسف أخذت بظاهر الثقافة السطحية التي لا تستطيع أن تذهب إلى عمق التكوين الفكري، ولا تستقرئ الخلفيات الحضارية والتراثية التي أوجدت مثل هذه الثقافة، فصار ما يخصنا منها أو ما استطعنا أخذه أشياء سهلة الحمل رقيقة الحاشية سريعة الذوبان والتلاشي، وشديدة التقصف عندما تعرض على محك الفكر الذي يقود إلى التغير والتحول إلى الأفضل.

لقد جاء تعامل المثقفين العرب مع الثقافة الغربية محكوماً بالضرورة، فكان حظهم منها تراجم مستعجلة وأفكاراً عابرة، وخطرات سريعة، وفهماً ناقصاً مبتوراً سياقه منقول مترجم عن مدد الثقافة الأصلية للقوم. أخذ المثقفون العرب من الثقافة الغربية ما جاء إليهم بثوب الطارئ الغريب، فانشغلوا بروعة ملمسه وشفافية مظهره ولمعان بريقه، فدار المثقف العربي حول هذه الشكليات وأخذ

www.mtenback.com

يتعرف ملامح تكوينها الخارجي، ولكنه لم يستطع الدخول إلى حصنها الحصين، ومعرفة أسرارها، لأنها ثقافة قوية غالبة، جددت شبابها الحرية التي حرمنا منها، وأفسحت لها فضاءً واسعًا، فامتدت فيه واستفادت منه، وأخذت تبهر بهذه الحرية وهذا الفضاء الرحب من الفكر الحر كلَّ من يعيش في أطر الصيرورة الاجتماعية، وتكوين الوعي القسري. فكانت علاقتنا بها انجذابًا إليها وإلى الحرية التي اتخذتها ميداناً لها فهُمنا بها في شوق عذري لايبلغ بصاحبه الوصول المريح، ولا يبعد عنه فيقنع بالانقطاع الصريح، تظلنا هذه الثقافة وحضارتها كظل غمامة كثيرٌ عزّة حين يصفها بقوله:

وإنِّي وتِهْيَامي بِعَزَّةَ بَعْدَمَا تَخَلَّيْتُ عَمَّا بَيْنَنَا وَتَخَلَّتِ
لَكَا لْمُرتَجي ظِلَّ الغَمَامَةِ كُلَّمَا تَبَوَّأَ منْهَا لِلْمقِيْلِ اضْمَحَلَّتِ
كَأنِّي وإيَّاهَا سَحَابةُ مُمْحِلٍ رَجَاهَا فلمَّا جَاوَزَتْهُ اسْتَهَلَّت

إن حظ عالمنا الذي نحن منه من الثقافة الغربية كحظ المرتجي مقيلا في ظل غمامة زائلة لا يكاد يشعر ببردها حتى تنقشع عنه، وعندئذ يُحسُّ هجيرًا أشد مايكون لفحاً. وقد خلقت صلة المثقف العربي بالغرب والعلاقات غير المتكافئة معه مأساة الإنسان المعاصر الذي يعيش الواقع بوعيه التام، فيرى ضفتي هذا الكون ويجد في

www.mtenback.com

إحداهما جنة خضراء يانعة بالثقافة الحرة والفكر الذي لا تقيده هواجس الخوف، ولا يتعامل مع مجتمعه، بالتقيّة والمداراة والمداجاة والغرر، كما يفعل المثقفون في عالمنا العربي والإسلامي، ويجد على الضفة الأخرى صحراء قانعة فقيرة في ثقافتها، منهوبة حريتها، ومستعبد تفكيرها، ومعطل إدراكها. ضفتان تشبهان بغداد في رأي القاضي عبدالوهاب المالكي حين وصفها قائلاً :(١)

بغداد دَارٌ لأَهْلِ المَال طَيِّبةٌ وللمَفَالِيْسِ دارُ البُؤْسِ والضِّيْقِ

وما أكثر مفاليس الحضارة المعاصرة وثقافتها.

ومن يتناول محاور الثقافة الحاضرة فإن عليه أن يُدرك أن الدنيا أصبحت قرية كونية صغيرة، وعليه - حتى لا يغالط نفسه - أن يعي إن كان من مثقفي الوطن العربي والإسلامي، أنه في مهبط الوادي السحيق منها، وأن من يساكنه في هذه القرية يطل عليه من علو شاهق، وينظر إليه بازدراء ماحق، ومن شقوته أنه عندما يشعر هذا الشعور لا يجد غير الماضي الذي يذكّره تاريخ العظماء من قومه، فيطرح أمامه الركام الهائل

(١) يروى أنه لما نبت بغداد بالقاضي عبدالوهاب المالكي خرج منها طالبا مصر، فشيعه أهلها وأكابر فضلائها، وجماعة موفورة فقال لهم لما ودعهم: لو وجدت بين ظهرانيكم كل غداة وعشية رغيفين ما فارقتها، ثم تمثل بهذا البيت، وبعده:

أقمت فيها مضاعا بين ساكنها كأنني مصحف في بيت زنديق

www.mtenback.com

من مأثوراتهم التي لا تغني عنه في حاضره شيئًا، بل لعلها تعيقه عن الحركة وتصده عن السير السليم.

إن الثقافة محصلة مؤثرات كثيرة أوجدت في النهاية علاقات الناس وتقاليد الأمة ذات الثقافة أو ذات الصناعة الثقافية. والمثقف العربي يعيش اليوم في مجتمع مركب شديد التعقيد، ذابت فيه تقاليد الأمة، وتحللت في صور جديدة، واختلطت فيه الأعراف، وتباينت الوسائل الموصلة إلى الغايات، وأدرك المثقف المعاصر أن الضوابط العامة في المجتمع الجديد لم تعد هي التقاليد الأولى، فلم تعد الأعراف تكتسب متانتها من القناعات الذاتية، وإنما صار الضابط الاجتماعي هو قانون الأمم الذي تفرضه القوة وتُلزم به. ولم تعد الحياة الخاصة للإنسان العربي في مجتمعه الجديد هادئة مطمئنة، بل أصبحت هائجة مائجة شديدة التقلب كثيرة الاضطراب متعددة الأغراض. كل هذه الظروف المتكالبة على الأمة العربية هيأت للمثقف العربي ثقافة شكلية تميل مع مصالحه الشخصية ومطامعه الذاتية وتبتعد به عن دور المثقف الذي يحاور بفكره أو يتوجه بعقله إلى إصلاح مجتمعه. فذابت رؤية المثقف وضاعت رسالته التي يرجى أن تصلح شيئاً من الواقع الرديء. لقد أنتجت الأوضاع التي مني بها العربي

www.mtenback.com

خلال سبعين عاماً مضت شخصية مثقف المناسبة، ومثقف السلطة القادرة ومثقف اللحظة، وكلنا يعرف الأسماء والأشخاص من المثقفين العرب اليساريين الذين ملأوا الدنيا نعيقاً عندما كان اليسار السياسي مسيطرا على الوطن العربي بتوجهاته وأفكاره وطروحاته، كان المثقف هو صوت هذا اليسار ومزماره وهو في الطليعة قبل السياسيين المعتنقين لمبادئ اليسار وأفكاره.

وعندما تحول المدُّ إلى اليمين وجدنا المثقفين العرب اليساريين تحولوا إلى أقصى اليمين برؤاهم وأفكارهم، وفيما ما يعتقدون ويؤمنون به، وعندما حلَّ المدُّ الإسلامي محل هذين التيارين إذا هم تحوّلوا ثانية إلى مفكرين إسلاميين، بل كانوا أشدَّ وأقوى من كل الإسلاميين والمصلحين. هذا الميل الانفعالي مع كل اتجاه جعل المثقفين العرب صورة باهتة للحياة السياسية والاجتماعية التي تسود في الوطن العربي، فأصبحت الثقافة مطية سهلة للمنتصر من الآراء والأطروحات الفكرية والمذهبية، وأصبح الوطن العربي كله مجالاً خصباً لتبرير الأخطاء على ألسنة المثقفين الأذكياء الذين سعوا بقدراتهم وملكاتهم العقلية إلى أعتاب القادرين، وباعوا ضمائرهم بأزهد الأثمان، فكسدت بضاعة الأدب، وساء تقدير الفكر، وتفاقمت أزمة الثقافة، ولم يعد

www.mtenback.com

أحد يثق بما يسمع أو ما يقرأ لهؤلاء، الذين أصبحت لديهم القدرة على التلون المبني على أسس النفعية البحتة القائمة على ابتزاز الضعفاء والقادرين على حد سواء.

إن هؤلاء المثقفين الذين نتحدث عنهم هم دعاة الازدواج الثقافي الذين يبررون المواقف، ويدافعون عن الأخطاء التي يجدون للدفاع عنها نفعاً يعود عليهم بشيء من الفتات الرديء، حتى لو كان في مقابل ضمائرهم؛ ولذا صارت الأزمة التي يعيشها العالم العربي هي أزمة خلقية في الدرجة الأولى وثقافية في الدرجة الثانية، وهي السبب في تذبذب الآراء الموجهة التي لا تقود إلى الصواب في العمل، وهذا التذبذب في المواقف غيَّر الحال وجعل الأفكار البناءة في خطر التغير والتحول، فصاحب الرأي أو المثقف أصبح يعيش مرحلة التأرجح الدائم بين مواقفه الواعية وقناعاته الشخصية، ومايقابل هذا من إلحاح المنافع الشخصية السريعة التي تعترض طريق المثقف وتغريه بالانحراف، لقد أصاب المثقف العربي مرض التناقض المعرفي والتناقض السلوكي والتناقض الذاتي. تناقض مع نفسه ومع غيره ممن يعيش الوسط الاجتماعي الذي يعيشه. وباختصار شديد فإنه -أي المثقف- يعيش تناقضات عجيبة في حياته كلها، لا تستطيع مع هذه التناقضات أن تجد له موقفاً تصفه به أو رأياً تميزه به عن غيره، والسبب في هذه الحالة من

www.mtenback.com

انعدام الوزن أنه يعيش هجوماً خارجياً حاداً لعقود من السنين استطاع أن يتحول إلى صراع داخلي حاد كيَّف سلوكه إلى قدرة كبيرة فائقة لكنها قدرة خاصة قادرة على التلون باللون الذي تضعه فيه الظروف، ففقد السيطرة على الإدراك الواعي لما يريد، وبفقدانه الثبات على رأي فقد صفات المثقف الحقيقي الذي يعطي الثقافة التي ينتمي إليها شيئا من طبيعته وشكله، فأصبحت ثقافته تعيش في ظل المصالح الآنية وتخدم الأغراض الشخصية، وتعبر عن المواقف النفعية، في أهدافها، ومراميها، وفي وسائلها، ومتطلباتها. أما مظهرها فخليط. خليط ملون من الأفكار والرؤى البشرية في مشارق الأرض ومغاربها لا يُعطي صورة حقيقية للثقافة المحلية أو القومية أو الوطنية، تقرأ في سطور الثقافة وأطروحاتها فلا تكاد تميز أين أنت من العالم الذي تقرأ فكره وثقافته، وتعيد القراءة بحثًا عن روح المثقف أو فكره فيعجزك العثور على شيء مما تطلب. ذلك أن الخطاب الثقافي الذي يمارس في التوعية العامة هو خطاب مغموس في المناسبة الآنية، ومطروح في معترك الحياة النفعية، ومأخوذ من شتات الآراء الفلسفية والوقتية، وهو خطاب غير مثقف حتى ولو كان عرضه حسنًا، ولغته تحمل صفات الثقافة، التي يدَّعي أنه يقدمها لقرائه. المثقف العربي في ظرفه الحالي مثقف مزيَّفٌ في ثقافته وفي وعيه من ثم فهو مزِّيف للوعي والثقافة.

www.mtenback.com

تعريف الثقافة

ما الثقافة؟ هذا سؤال كان يصلح البدء به عما نحن بصدده من تعريف للثقافة ومعرفة حدودها وماهيتها؟ وهل الثقافة عموم أو خصوص، إطلاق أو تقييد، كلٌّ أو جزء. وقد أرجأنا الإجابة عنه في صدر حديثنا عن الثقافة. وبالرغم مما سوف نطرح من صور للثقافة ومن تعريفات كثيرة فإن البداية بالتعريف العربي التقليدي أو الكلاسيكي هو مايجب أن نصدر به هذه الكلمة فيما يخص تعريف الثقافة. وما يوافق المعنى المفهوم منها في المدرك العربي. تقول معاجم اللغة: ثقف الشيء حذقه، ورجل ثَقِفٌ: حاذق فَهِمٌ، وأتبعوه فقالوا ثَقْفٌ لَقْفٌ. ويقال: ثَقِفَ الشيءَ وهو سرعة التعلم، وثقفت الشيء: حذقته، وثقف الرجل ثقافة: أي صار حاذقًا خفيفًا وفطنًا. وفي حديث الهجرة: «وهو غلام لقِنٌ ثَقِفٌ» أي ذو فطنة وذكاء، والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه. وفي حديث أم حكيم بنت عبدالمطلب قالت: إني حصان فما أكلمٌ، وثقاف فما أُعَلَّم. والثقاف التسوية والإصلاح، والرجل إذا أصلح نفسه قيل أقام أوده بثقافه [1]، والثقاف مايقوَّم به معوجّ الرماح.

والشاعر يقول في وصف القدرة على مداخل الأمور: [2]

(١) انظر مادة (ثقف) في اللسان.

(٢) العرجي، انظر دوانه.

www.mtenback.com

حُوْرٌ بَعَثْنَ رَسُولاً في مُلاَطَفَةٍ ثَقْفاً إذَا أسْقَطَ النَّسَّاءَةُ الوَهِمُ

وفي أساس البلاغة: أدَّبَه وثَقَّفَه، ولولا تثقيفك وتوقيفك لما كنت شيئًا، وهل تهذبتُ وتثقفتُ إلا على يدك [1]. ويستعمل الجاحظ المعنى نفسه فيقول: وأقام صفوه بثقاف الأدب. وقد اتخذت معناها المعروف في بداية التاريخ الإسلامي والتدوين للفكر، ثم وُصِف بها أهل صناعة الأدب حيث يقول عبدالحميد الكاتب في رسالته إلى الكتَّاب: تنافسوا معشر الكتّاب في صنوف الآداب.. ثم العربية فإنها ثقَافُ ألسنتكم. ويروي الحريري في مقاماته: صحبني غلام ربيته إلى أن بلغ أشده وثقفته حتى أكمل رشده. وأرجع الراغب جميع معاني الثقافة إلى معنى واحد وهو الإدراك على وجه الإطلاق [2]. أما في اللغات الغربية فقد اتخذت الثقافة بعداً دينيا في القرون الوسطى ثم أصابها الكثير من التحول، ففي منتصف القرن السابع عشر أخذت معنى إصلاح الأرض وزراعتها، وتهيئتها للإنتاج وبذر الحبوب، وخدمتها حتى تجود بما هو خير. وفي القرن الثامن عشر ومابعده دلت كلمة «ثقافة» على التكوين الفكري للإنسان وعن التقدم الذهني والعقلي للشخص خاصة وعما يتطلبه ذلك من عمل وماينتج عنه من تطبيقات [3]. وقد لاحظنا أنها مرت بتحولات

(١) أساس البلاغة مادة «ثقف».

(٢) محمد عبدالكريم الجزائري، الثقافة ومآسي رجالها، ص١٣.

(٣) الطاهر لبيب سسولوجيا الثقافة، ص٦.

www.mtenback.com

كثيرة في اللغات التي عرفتها حتى انتهت إلى المصطلح المعاصر. الذي يعني الشمول المعرفي للإنسانية. أما إذا تجاوزنا التعريف المعجمي للثقافة وانتقلنا إلى مفهومها الشايع الذي أصبحت تتجه إليه الأذهان عند سماع هذا اللفظ فإننا نجد الثقافة أكثر سرياناً على ألسنة المتكلمين، ولكنها أيضا من أكثر المصطلحات غموضا وتلونا حتى بلغت حداً يصعب معه الاتفاق على تعريف ينضبط به المصطلح(١). . وهي -أي الثقافة- وثيقة الصلة بالحضارة التي هي حياة المجتمع في جميع عناصرها وأشكالها ومظاهرها، وهي تمثل مكاسبه وإنجازاته وقيمه والمعاني التي تنطوي عليها حياته (٢). وقد تبدو الثقافة في كل تعريف لها واسعة الدلالة مجملة المعاني، تعطي تصوراً يدخل فيه كثير من النشاط البشري، بل كل النشاط البشري المادي، وغير المادي، فيشكل ملامح مميزة من مادية وفكرية وروحية. ومايحدد الثقافة هو خصوصية القيم الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية وليس مدى تطورها وفعاليتها (٣).

وللواقع الاجتماعي مجالات ثلاثة تعطي المجتمع أبعاده الحركية الأساسية؛ وهي البعد الاقتصادي، والبعد السياسي، والبعد الثقافي. وتختلف درجة المعرفة العلمية لهذه الأبعاد الثلاثة، فمعرفة البعد

(١) الطاهر لبيب، سسولوجيا الثقافة، ص٦.

(٢) أحمد صدقي الدجاني، فكر وعمل ص١١٢.

(٣) برهان غليون، الوعي الذاتي ص ٩٠.

www.mtenback.com

الاقتصادي أكثر تقدما بلا ريب.. أما البعد الثقافي فهو البعد الأقل تقدما في المعرفة العلمية له [1]. وإذا كان البعدان الأول والثاني هما من أشد الأحوال صرامة ووضوحا في الحياة العامة وفي الإدراك لحدودهما وأثرهما في حياة المجتمع الإنساني، فإن البعد الثالث هو مايكوِّن سلوك المجتمع الظاهر غير المحدود، ويشير إلى نمط الحياة ومفاهيمها في كل أبعاده وعلائقه فيما حوله وما يحيط به، كما يؤثر في سلوكه وفكره الذي يحدد مساره وأغراضه، ويدل على توجهاته فينطبع كل ذلك على صلته ببيئته العامة، شعر بذلك أم لم يشعر.

وفي النهاية فإن الثقافة هي مايصنعه الإنسان في البيئة أو أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يصنع الثقافة، وعلى هذا الأساس أخذت الثقافة بعداً معرفياً يصف المثقف بعد اكتمال آلته الثقافية ويصف الثقافة في مراحلها الأخيرة ونتائجها المؤثرة في أحوالها ومتطلباتها، وماتحتاج إليه طبيعتها. فالثقافة هي تهذيب العقل والذوق والسلوك بالتربية والتعليم، وهي مايبقى بعد أن ينسى كل شيء، وقد لخص أحد الباحثين كل ماتقدم من تعريف للثقافة بنقاط محددة فقال: «إنها تفتُّح في العقل، ووعي في القلب، وإرهاف في الشعور، واستقامة في السلوك،

(١) سمير أمين، نحو نظرية للثقافة ص ٥٠.

www.mtenback.com

وحذق في الأشياء علما وعملا» [١]. وقد صارت الثقافة تعبيراً عن التكوين الفكري عموما وعن التقدم المعرفي للشخص خصوصًا، وعما يتطلبه ذلك التكوين من عمل ومايننتج عنه من تطبيقات، ثم تطورت حتى أصبحت تدل على التقدم الفكري الذي يحصل عليه الفرد أو تحصل عليه الجماعة الإنسانية بشكل عام [٢].

وقد أخذت الثقافة في تعريفها معنى الحضارة في الفكر العربي حيث صارت الحضارة هي المرادف أو هي الأصل. وأصبحت الثقافة جزءًا منها أو تابعًا لها. وقد خالف بعض الباحثين هذا المذهب الذي طرح فيما سبق من آراء ذهب إلى أن الثقافة التي تدور على ألسنة المثقفين العرب وفي أدبيات طرحهم هي غير الثقافة التي تدل عليها الكلمة ذاتها في الوقت الحاضر، وميز بين الثقافة الغربية والثقافة العربية مشيراً إلى أن عبارة (ثقافة عربية) لا يمكن أن تكون في لغة هذا العصر إلا معنوية، في حين أن لفظ «حضارة» تضم الجانبين، المادي والثقافي فكما أن كلمة «Culture» اللاتينية تعني في الأصل الزراعة، وفي الاستخدام المجازي التهذيب الجسمي والنفسي والعقلي للإنسان، كذلك فإن لفظ (الحضارة) في الأصل العربي يعني الاستقرار الذي ارتبط تاريخيا

---

(١) محمد عبد الكريم الجزائري، انظر الثقافة ومآسي رجالها ص ١٣ - ٢٢.

(٢) الطاهر لبيب، سسولوجيا الثقافة ص ٦.

www.mtenback.com

بالزراعة، كما تعني مجازيا نمط حياة المتحضرين وسلوكهم وطرق تفكيرهم. لكن العربية منحت لكل من فرعي الحضارة مصطلحاً خاصا، فأطلقت على الإنجاز المادي للبشر «العمران» وعلى المعنوي «الثقافة» في حين اكتفت اللغات الأوروبية بمصطلح «Culture» مفهومًا عامًا تاريخيا وآنثربولوجيا وإثنولوجيا لتقصر استخدامه في الحياة اليومية المعاصرة على معنى الإنجاز المعنوي، لهذا فإن المثقفين العرب بتغييرهم المتسرع لمضامين مصطلحاتهم الموروثة يميلون إلى حشوها بالمفاهيم الغربية دون تبصر، فيحدُّون من قدرة لغتهم، في الوقت الذين يظنون فيه أنهم يفرعونها إلى المستوى العالي الموهوم للغات الأوروبية [1]. وفي رؤية أخرى للعلاقة بين الحضارة والثقافة والتلاحم الذي يقرب كلاً منهما إلى الأخرى، يرى الأستاذ عبدالعزيز السالم: «أن الثقافة أخذت من ملامح الحضارة وسماتها، حتى صار التعبير بالمفردة الحضارية يشرق في الذهن على أنه لون من ألوان الثقافة، أو تعبير عنها، فبينهما من التبادل في المفهوم مايجعل إحداهما تمثل الأخرى أو تعد مكملة لها أو امتداداً لطبيعتها» [2]

ومادامت الثقافة تتصف بهذا البعد والاتساع الدلالي وتتخذ دائرة

(١) بو علي ياسين ص ٧٣ الثقافة الوطنية ص ١ «مقال ضمن مجموعة مقالات».

(٢) عبدالعزيز عبدالله السالم، واقع الثقافة والفكر، مجلة الفيصل العدد ٢٦١ ربيع الأول ١٤١٩هـ يوليو ١٩٩٨م.

www.mtenback.com

واسعة في نشاط الإنسان المادي والمعنوي فإن نسيج الثقافة يحبك مما يشكل التشابك المعقد للعلاقات الإنسانية وللتصورات البشرية، وهو نسيج يخلق في كل دائرة اجتماعية أو إنسانية شبكات هائلة من الروابط العقلية والسلوكية والمادية والشكلية حيث يتكون من مجموع هذه الشبكات سمة مميزة للمجموعات البشرية التي يجمعها إطار من التكوين الثقافي المشترك، فيما يمكن أن يوصف بالمظهر العام للثقافة التي تحدد لكل مجتمع من المجتمعات البشرية صورة ثقافية تميزه عن غيره من المجتمعات، عندئذ نستطيع أن نحدد مجموعة كبيرة من دوائر الثقافة بأن إحداها تشكل الثقافة الصينية مثلاً وأن مجموعات أخرى من دوائر السلوك والفكر والتكوين هي صورة للثقافة العربية أو الإسلامية وأن للثقافة الغربية دوائر أخرى تتكون منها سمات الغرب وسلوكياته، ويبقى قاسم مشترك بين جميع الثقافات البشرية لا يمكن فرزه وتجسيده بحيث لا نجد ثقافة خالصة بذاتها، بعيدة عن الثقافات الأخرى منفصلة عنها، كما أننا لا نجد ثقافة شمولية عامة مميزة عن الثقافات البشرية. هذا الحد الأدنى من المشترك العام بين ثقافات البشر جعل محور التفكير النظري المجرد للثقافة يتجه إلى الفوارق في سمات الثقافة وآلياتها، فتحدد الفواصل الممكنة بين كل ثقافة وأخرى، فإذا اتضحت هذه الصفات حددنا الثقافة وحددنا مكانها وزمانها والمجتمع الذي عاشها في الماضي أو يعيشها في الحاضر وسهل تصنيفها والنسبة إليها.

www.mtenback.com

حاضر الثقافة

لا يجد الباحث في علم الاجتماع والتاريخ ولا في الآنثربولوجيا فترة تقاربت فيها ثقافات الأمم والشعوب والمجتمعات واختلطت أو كادت مثلما يجد في الوقت الراهن، حيث صارت الثقافة بمشتركها العام ملكاً إنسانياً مشاعاً بين شعوب الأرض. وهذا الوضع شبه المتفق عليه أو المقبول، يجسد للقارىء مدى الحاجة إلى الإبقاء على الاختلاف والتنوع الثقافي الذي أصبحت تذوب عراه وتضمر قواه أمام الاندماج الجديد للثقافات الأقوى التي أخذت تظل جميع الثقافات القديمة وتسدل عليها ستارا من التقارب بحيث تصير دوائر الاتفاق والتماثل هي الظاهرة المحسوسة في مجرى الثقافة المعاصرة وتختفي بالتدريج السّحنة المحلية المميزة للثقافات السائدة في المجتمعات القديمة، وفي هذا الحال سيكون ظهور الثقافة الأقوى هو الغالب على طابع التشكل الثقافي الحادث. أما الحضارات والثقافات الأقل حظا فهي لا شك تلك الثقافات والحضارات القديمة التي لم تستطع أن تنهض بقدر كاف من القوة في الوقت الحاضر، وإذا كان الظهور الأقوى سيكون للحضارة الغالبة في جزأيها المادي والمعنوي، أو بمعنى يوافق مانحن بصدده وهو قيمة الثقافة المعاصرة وماهيتها، ومكان كل ثقافة من

www.mtenback.com

ثقافات الأمم القديمة والمعاصرة مع الثقافة الحاضرة، فإن الحديث عن خصوصية ثقافية يحتاج منّا إلى تحديد آخر لمعنى الثقافة الخاصة أو ثقافة الأمة الواحدة وصلتها بالثقافات الأخرى التي أصبحت تكوّن السمات الثقافية الشمولية الواسعة، ومثالها الجيد هو الثقافة الغربية بشكل عام والثقافة التي تعتمد اللغة الإنجليزية بشكل خاص.

إن الغلبة التي تسود العالم في عصرنا هي غلبة التقنية العلمية والاختراق السريع لمدركات الإنسان خصوصًا ذلك الإنسان الذي كوّن ثقافته على أسس المجرد والمعنوي والخلق المثالي، فجاءت الثقافة الحديثة لتهز أسس تلك المكونات القديمة التي كان العقل التقليدي المجرد يؤمن بها، ويحترم دلالتها، ويعطيها تصوراً مثاليا. وقد سحبت قدرة الثقافة التي تدعمها التقنية الثقة فيما كان يعتقده ذلك العقل وما يؤطره من أفكار، لم يعد يشعر بسلامة دلالتها، ولكنه لم يستطع التحول عنها إلى شيء آخر من أنواع الثقافة الحادثة. وقد بان عجز العقل الذي شغلته ثقافة الأسطورة والخارقة والكرامات عن التقارب مع ثقافة الوعي والعلم التي تبتعد كثيرا عن مجالي الأسطورة والخوارق البشرية، والمعجزات التي يؤمن بها عقل العامة وأشباه العامة. كانت الظاهرة الأقوى في العقل القديم هي الإيمان بالتدخل الميتافيزيقي لصالح الإنسان أو لصالح بعض الناس وأن يتصدى الحظ لآخرين فيحبط مسعاهم ويجلب لهم سوء الطالع والنكد والحرمان.

www.mtenback.com

لكن هذا الإيمان الماضي تلاشى من الحاضر أو كاد، وأصبح الوعي البشري الفاعل والصانع للثقافة يبتعد في خطواته عن الميثولوجيا البدائية، وينتصر للعلم المبني على درجات من الممارسة العلمية الحضارية الواعية التي تعطي الأحداث تحليلا علميا لا مجال فيه للوهم والتخيل، ولا يتعامل مع خطرات النفوس ووساوس الأهواء. إن الثقافة التي تغير واقع الحال وتبدله إلى ماهو خير وأفضل، هي الثقافةالتي تقوم في أساسها على تكوين عقلي علمي يعي الدور الذي يجب على المثقف فردًا وعلى المثقفين جماعة أن يقوموا به حتى يميزوا مدلول الثقافة التي نعنيها في هذا الحديث. إذ الثقافة في تعريفها المعجمي الذي مرّ في صدر هذا الفصل ليست الغاية المرادة فيما نبحث عنه، عندما نتحدث عن الثقافة التي يفهمها الذهن المتلقي ويتوجه إلى مدلولها العام الشائع لدى الناس، فإنما نتحدث عن أثر ثقافة المثقف على سلوكه ومشاركته أمته همَّها وتصوره لمستقبلها وعمله بفكره وثقافته على تطور هذا المستقبل، نصنف المثقف بأنه الشخص الذي نال قدرًا من التعليم النظامي أو المكتسب وانعكس تعليمه على سلوكه ودوره في مجتمعه، وحصل على قسط مناسب في الجانب النظري من الحياة أو قسطًا من الجانب العملي التطبيقي. ولهذا السبب تناول عدد من الكتّاب والمفكرين توصيف المثقف وتعريف عمله، فكانت آراؤهم في تحديد المثقف لا تبعد عن محور التعليم العام

www.mtenback.com

والممارسة المهنية. فالمثقفون عند آنتوني سمث (Antony Smith) «فئة من المتخصصين، في تخصصات علمية أو علوم إنسانية؛ وتتسع هذه الفئة لتشمل المحامين والأطباء والصحفيين والأكاديميين ومعلمي المدارس والاقتصاديين والفنيين والمهندسين، إنهم الخبراء في مختلف المجالات، إنهم أولئك الحائزون على ثقافة خِدْمية ويستغلون شهاداتهم التعليمية لضمان مناصب أفضل لهم وللحصول على دخل أعلى معتمدين على شهاداتهم وتدريبهم المهني»(١).

وهذا التحديد للمثقف تحديد بعيد عمّا نريد من وظيفة الثقافة ومنتجها ومستعملها. ولكن المؤلف في رأي آخر عرف المثقف وعرف وظيفته في المجتمع الذي ينتمي إليه فقال: إن «كل شريحة اجتماعية موجودة في حقل من حقول المعرفة الإنسانية لها بلا شك دور أساسي في عالم الإنتاج الاقتصادي، تتجاوز وظيفتها الاقتصادية وتلعب دوراً في المجالات الاجتماعية والسياسية . كل الناس مثقفون.. لكن لا يلعب كل الناس في المجتمع دور المثقفين».

إن محك الثقافة والمثقف هو هذا السطر الأخير من التعريف هل يلعب المثقف دوره في مجتمعه أو لا يلعب هذا الدور؟ أظن أن هذا هو مايميز المثقف المعني بهموم الثقافة ومتطلباتها، فهو عندما يستشعر

(١) الثقافة الوطنية (١) التبعة، التراث، الممارسة، ص ١٤٢.

www.mtenback.com

وظيفته في الحياة العامة ويقوم بها، يصبح مثقفا ويصدق عليه تعريف المثقف، وعندما يتخلى عن هذا الدور تسقط عنه سمة المثقف ودلالته وإن حصل على كل مسوغات التعليم. ولا يعد المرء مثقفا دون المشاركة في الهمِّ العام الذي يؤدي فيه دوره بصفته إنسانًا فاعلاً في محيطه الذي يعمل فيه بغض النظر عن سعة ذلك المحيط أو ضيقه. المثقف في هذا التعريف هو المتفاعل وجدانيا مع كل قضايا الحياة التي تحيط به وتؤثر في بيئته العامة، حتى وإن لم يكن على حظ من التعليم أو المهنية الخدمية التي أشار إليها التعريف الأول. والمثقف هو ذلك المتأزم دائما الذي لا يستكين ولا يقبل أنصاف الحلول في مشروعه التنويري.

هذه صفة المثقف مطلقًا. أما المثقف العربي فقد تعامل مع الثقافة بأنانية وانعزالية كبيرة حرمته فضيلة الإسهام الواعي في مشروع الثقافة الذي يؤمل أن يعيد إليها شيئا من قيمتها واحترامها وماهية وجودها، أو أن يشارك في بناء وعي تنويري يدفع إلى جلاء الصورة للحاضر، ويفتش في خلايا الواقع عن نبض الحياة التي تصلح للعمل، وتستجيب للراهن والمستقبل، وفشل أن يتحول إلى مستودع لهموم المجتمع وقضاياه العامة، فترك حيل المتلاعبين وزيف المزيفين دون كشف،بل أصبح طرفاً في هذا الزيف وصار عراباً للأمر الواقع، ومسوغاً للأخطاء.

www.mtenback.com

وعاء الثقافة

حاضر الثقافة اليوم يبعث القلق في نفوس أبناء الأمة العربية في كل أقطارهم، وعلى اختلاف صلتهم بالثقافة وتحصيلهم منها، ولهذا الحاضر الضعيف المهزوم مؤثرات انعكست على كيان الأمة العربية الواحدة وعلى صمودها في وجه التحديات السياسية والاجتماعية والمذهبية وغيرها، ومن هذه التحديات يبرز أقواها متمثلاً في التحدي الثقافي والفكري:

ولأن اللغة العربية الفصحى بثقافتها، وشمولها، تعدُّ قاسما مشتركا بين العرب، حضارة، وثقافة، ولغة، فإن مجال الحديث عن شخصية عربية ثقافية موحدة، هو مايبقى للعرب اليوم، وما سيبقى لهم في المستقبل إذا هم أحسنوا التعامل معه، واتخذوا اللغة وسيلة إليه، وعرفوا كيف يدخلون إلى بوابة الألف الثالث بهوية عربية واحدة، وكيف يتغلبون على مايعيشونه ويشاهدونه من أسباب الانفصال والانفصام، والتمزق الفكري، وكيف يتوسلون باللغة الواحدة إلى المستقبل العربي الواحد. ووظيفة اللغة ليست محصورة في كونها أداة تواصل فحسب – وإن كانت كذلك – لكنها هوية وانتماء للعرب، ورابطة للوحدة العربية الكبرى في ظل الدويلات والأقاليم والفئات والمذاهب السياسية

www.mtenback.com

والفكرية التي ينمو الشعور بأهميتها وحقيقتها. واللغة هي الحاضن الأمين للثقافة، وهي الوعاء الضامن لاستمرارها، وحيويتها والتعبير الصادق عن مضامينها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وهي المرآة التي تعكس الأفكار، وتنقل النشاط الإنساني بكل صوره وبواعثه وتفاصيله إلى الأجيال بأمانة وصدق وموضوعية. ولا تكون الثقافة ثقافة أو فكراً إلا إذا كانت لغة هذه الثقافة والفكر موصلة جيدة وناقلة صادقة لخطرات النفوس، ومعبرة أصدق تعبير عن واقع حي تعيشه اللغة، وتسجله بأمانة وتحفظه ليكون سهل الإدراك والاستيعاب. والثقافة القديمة وكذا الحضارة تشهدان على إصرار اللغة وتميزها على كل نشاط إنساني آخر في ماضي الأمم البعيد وتدلل بصدق على أثر اللغة وفي تخليد ثقافتها، وإن اللغة هي التي نقلتها من الزمن الموغل في القدم إلى اللحظة الحاضرة، لتضمن الاستمرار في كل زمان ومكان. ولهذا يقول بعض الفلاسفة: إن حدود عالمه الذي يعيش فيه حدود لغته التي يتكلم، ولأن اللغة هي عالم الإنسان الذي يعيش فيه ومحيطه الذي يتحرك بداخله، وذاته التي يعبر عنها في كل هذه الحدود، فإن ثقافته تكون بمساحة اللغة قدمًا، وبغناها موروثا وبطولها زمناً. وقد كان الاهتمام باللغة منذ بدء الحياة على وجه الأرض هو محور النشاط الإنساني، وهي كل ذلك النشاط وأداة الاتصال التي أوجدت أهمية التعامل المثمر، ووصلت الماضي لكل أمة

www.mtenback.com

ولكل جيل بما يأتي بعده من أمم وأجيال. وقد تفاوت حظ اللغات من حيث القوة والضعف، وسرعة الانتشار وطول الحياة أو قصرها، وغناها أو فقرها، كما تفاوت حظ الناس والأمم في ذلك. وإذا كانت اللغة وعاء أمينا للثقافة فإنها كائن حي يتعرض لآفات الحياة وبلوائها، ويصيبها المرض والموت والعاهة المستديمة، لكن المرض الخطير الذي تعرضت له اللغات عبر تاريخ مسيرها الطويل، وقضى على بعضها بالموت والزوال هو الثنائية اللغوية التي هي باعث التحلل الذي يفتك بجسد اللغة وينهكه حتى يقضي عليه مع مرور الزمن، ويصيب إناء الثقافة بالصدأوالتكلس، الأمر الذي يؤدي إلى تفتيت الثقافة وتبديدها، وأهم ثنائية تواجه اللغة وتبدد الثقافة هي الثنائية اللغوية، كالعامية مثلا وقد نبتت من ضلع الفصحى وهي تعيش تحت ظلالها وتنمو معها نمو الرضيع مع الحاضنة حتى يقوى ويشتد عوده، والعامية ستقوى ويشتد عودها في كنف حاضنتها الأم إن وجدت الرعاية والعناية الكافية لها، وكلما قويت أوهنت أمها وأضعفت حاضنتها، وامتصت منها نضارتها وحيويتها حتى تقضي عليها وتحولها من النشاط والصحة والقدرة إلى الخمول والركود والمرض والضعف، الذي يؤول بها إلى الوفاة المحتومة، وصدق العرب حيث قالوا «من سرَّه بنوه ساءته نفسه» أما في الحال الآخر الذي تكون اللغة فيه محظوظة فهو أن يكون لها أطباء نطاسيون يتابعون مسيرتها،

www.mtenback.com

ويرعون صحتها، ويحرصون على سلامتها، فيدفعون عنها أسباب الموت وأعراض المرض، وهنا تبقى اللغة سليمة، وتبقى ثقافتها قوية فاعلة. وشجرة اللغة هي التي تثمر الثقافة الأصيلة النافعة، ولكي تكون الثمرة جيدة ناضجة فلابد أن تبعد عنها كل النباتات الضارة المتسلقة الطفيلية، وأن تزول الأحراش التي تتطفل على حوضها، وتشرب ماء حياتها، فيقضى على كل نبتة ضارة تنمو بجانبها وتعشّش في حضنها، حتى تسلم من أمراض التسوّس والضعف، وتستمر اللغة حينذاك وتصح، وتنتشر ثقافتها ويستقيم ساقها وتتفرع أغصانها مورقة، وتظهر ثمارها، وتستعصي على أمراض التفكك والتشرذم والضياع.

واللغة الحاضنة للثقافة تكتسب حصانة قوية واستمراراً طويلاً في حالات كثيرة أهمها: أن تكون لغة دين خالد يؤمن به الناس ويحترمونه ويقدسون اللغة التي حفظته والثقافة التي جاءت بها نصوصه وتراتيله، وقد كان هناك في التاريخ البشري ثلاث لغات خلدتها الرسالات السماوية التي جاءت بها، فأعطتها حصانة مستمرة أبدية جعلت المحافظة على اللغة وثقافتها جزءا من المحافظة على النص المقدس. ومن حصانة اللغة أيضا أن يكون لها حظ كبير من الثقافة والمعرفة الإنسانية الواسعة التي أنتجتها عقول أبناء اللغة، وغالبت بها الأمم حتى تمكنت من فرض سلطانها المعرفي والعلمي على الناس، فأخذت اللغة حصانتها

www.mtenback.com

مما حوت من فنون العلوم والمعارف التي ينتفع بها الناس في كل العصور، مخلدة اللغة وثقافتها، لا لذاتها وإنما لما أفرغه العقل البشري فيها من ثقافة قيمة تحيي العقول وتنمي المدارك بقوة تأثيرها، وشفافية عطائها. ومن حصانة اللغة وقوتها وانتشارها، أن تكون لغة أمة غالبة وسلطان عظيم فتقوى بقوة الأمة صاحبة السلطان، وتحترم احترام القوة والمنفعة والفائدة، التي تعود على كل متعامل بها ومعها، وهي بهذا الحال تستمر ما استمرت القوة والغلبة لأهلها وسلطانها. ومن حصانة اللغة والثقافة التي تحويها سعة انتشارها وامتلاكها روح التميز على غيرها من اللغات، حتى تصبح مناط آمال الناس الذين يتكلمون ويعيشون في محيطها الواسع، فلا تضيق بهم السبل عندما يستعملونها، ويستغلون انتشارها لتحقيق مآرب الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فتصبح اللغة، والحال هذه، عامل تكامل ووحدة وقوة لا يستغني عنها شعب ولا أمة ولا إقليم أو جماعة، وفي هذا الإطار يتحقق مطلب الأمم العظيمة الذي تسعى إليه دائما وهو الوحدة، أعني وحدة اللغة ووحدة الثقافة اللتين يبلوران الشخصية والهوية ويحققان الذات المتميزة لكل مجتمع عظيم. وفي العصر الحديث مثل حي شاهد لإدراك الأمة أهمية اللغة والثقافة بوصفها عاملاً موحّدًا حتى في أحرج الظروف التي تصيبها، وتنال من سيادتها مثل الهزيمة في الحرب

www.mtenback.com

والتسليم للعدو بلا قيد ولا شرط إلا الأمن على النفس والحياة، فالأمة الواعية المعتزة بشخصيتها تعرف أن أمنها يتحقق بسلامة لغتها وثقافتها المميزة لها. فعلت ذلك اليابان يوم وقفت في هزيمتها في الحرب العالمية الثانية هذا الموقف، هزمها الحلفاء وركعت أمام قوتهم، وسلمت بلا قيد أو شرط، فلما طلب المنتصرون منها تحويل أبجدية اللغة اليابانية إلى أبجدية اللغة اللاتينية أدركت اليابان أن الهزيمة الحقيقية هي الهزيمة الثقافية التي ستمحو الشخصية اليابانية، وليست الهزيمة العسكرية. وأن هذا هو الرمق الأخير لحياة اليابان كلها لو استجابت، فكانت كلمة المفاوض الياباني المهزوم عسكريا مثالا لحب الحياة ومحاولة لكسب النصر من طوايا الهزيمة عندما يستطيع أن يحافظ على سلاح القوة الذي سيعيدها إليه، ولهذا قال المفاوض الياباني الجملة المشهورة: «خذوا كل شيء إلا اللغة اليابانية». فانتصرت اليابان بلغتها على قسوة الهزيمة وحققت بفضل وعيها لوظيفة اللغة وثقافتها ماتعيشه اليوم من قوة اقتصادية وصناعية وسياسية يضرب الناس بها الأمثال، وما ذاك إلا لأنها عرفت سرّ اللغة والثقافة في تحريك الشعور القومي والتميز الثقافي الذي يكسب الأمة الفخر بشخصيتها، وموروثها الحضاري، ويحقق لها النصر على غلبة العدو وسلطان البطش.

والمثل المقابل الذي يحسن إيراده نستدعيه من تركيا، الدولة العظيمة

www.mtenback.com

التي سيطرت على العالم سبعة قرون ودكت حصون أوروبا، واستقرت ثقافتها وحضارتها في تاريخ العالم، ثم تعرضت للهزيمة الساحقة في الحرب العالمية الأولى فساومها المنتصرون على ثقافتها ولغتها كما ساوموا اليابان فلم تقف موقف اليابان ولا أدركت قيمة الثقافة واللغة في إحياء الشعور القومي والشخصية القومية، بل استجابت لمطالب المنتصر واستسلمت لرغبته فتحولت عن ثقافتها وعن لغتها وتعلقت بثقافة عدوها ولغته. وهذه تركيا بعد ثمانين عاماً من الهزيمة الثقافية، والحضارية منبوذة من عدوها الذي هزمها ثقافياً وعسكرياً، ومقطوعة من تاريخها الذي فصلتها عنه رغبة العدو. فأصبحت دولة صغيرة ضعيفة فقدت مقومات الشخصية الدولية وفقدت مقوماتها الثقافية، بل فقدت احترام الغالب المنتصر، ولم تتقدم خطوة واحدة في صناعة أو حضارة ، فكان الفرق واضحا بينها وبين اليابان إذ اختل توازن تركيا، وضاعت بين رغبتها في التغريب الذي يرفضها بإصرار، وبين هويتها التي لم تعد تعيشها أو تريدها ولا تستطيع العودة إليها، وإحياءها. انقطعت تركيا ثقافياً وانقطعت لغوياً وانقطعت تاريخياً، وحكمت على نفسها بالقطيعة من التاريخ وصارت بلا هوية، فهي ليست أوروبية غربية كما تريد لحاضرها وليست شرقية إسلامية كما كان ماضيها وتاريخها.

www.mtenback.com

فهذان المثالان أوضح في أذهان الناس، وأبين من كل مايمكن أن نضيف أو نشرح، لذا أكتفي بهما، ولكنني أورد مثالاً ثالثاً مختلفاً عن المثالين السابقين هو إسرائيل التي قامت على فكرة الثقافة واللغة والدين، فإسرائيل لم تكن لتوجد لولا الإيمان بالثقافة الجامعة المتميزة في أذهان الإسرائيليين إذ لم يكن هناك مجتمع ولا دولة ولا أرض، كانت هناك صورة لثقافة ماضية ولغة ماتت منذ آلاف السنين وكتاب دين تؤمن به فئات مشتتة في العالم، وعندما فكرت هذه الفئات في أمر يجمعها ويقيم لها وطنا ودولة وشعباً، لم تجد أقوى من الشخصية الإسرائيلية والدين اليهودي واللغة العبرية. كانت الفئات اليهودية تنتمي إلى ثقافة الغرب ولغاته، والغرب ولغات الغرب في أوج قوتها ومنعتها وهي المساعد القوي لهذه الفئات على احتلال أرض فلسطين، وجعلها وطناً قومياً لليهود، ومع كل هذه الإيجابيات للثقافة الغربية إلا أن إسرائيل لم تقبل أن تنتقل بثقافة اليهود الغربيين، ولا أن تنتقل بلغاتهم إلى أرض الميعاد كما يزعمون، واختارت أن تنتقل بثقافة وشخصية تميز الدولة العبرية والشعب اليهودي عن غيره، فجعلت أسس قيامها على ثلاث ركائز: اللغة العبرية والدين اليهودي والشخصية الإسرائيلية (١) ولم تجد بداً من إعادة اللغة العبرية وإحيائها لتكون وعاءً للثقافة

(١) انظر حسن ظاظا، الشخصية الإسرائيلية ص٢.

www.mtenback.com

الإسرائيلية الحديثة، ولم تسمح باستعمال اللغات الأوروبية التي من أهمها لإسرائيل اللغة الإنجليزية، تلك اللغة التي يتكلمها كل الجيل الأول من المهاجرين إلى فلسطين، ممن قامت على أيديهم دولته في ١٩٤٨/٦/١٥م.

استرسلت في الحديث عن وعاء الثقافة – أي اللغة – لأناقش خاصيتنا نحن العرب الذين نتكلم العربية الفصحى ونستودعها رصيداً هائلاً من الثقافة العربية، واستعرضت في إيجاز شديد تاريخ اللغات، ودورها الثقافي لأضع اللغة العربية الفصحى في مكانها من هذا التاريخ الطويل للإنسانية كلها، لاسيما وقد وصل إلينا شيء من تاريخها ولغاتها وماضيها الثقافي والفكري حتى وإن كنَّا نعيش اليوم حاضرا ضعيفا إلا أنه يجب أن لا يؤثر على نظرتنا إلى حقائق الأمور، عندما نقارن اللغة العربية الفصحى وثقافتها بغيرها من الثقافات واللغات. وسيجد القارىء أن كل الأسباب التي تخلد اللغة، وأهمها الثقافة، قد تحققت في الثقافة العربية مضموناً ووعاءً لغوياً، وأن كل علة تعرضت لها الثقافات في تاريخها الطويل ربما تتعرض لها العربية، لأنها لغة الثقافة، فهي مثلا لغة دين خالد نزل بها الكتاب العظيم وكرمها الله به، ومنَّ على الأمة أن جعل رسالته إليها«بلسان عربي مبين» كما أنها لغة ثقافة عظيمة حفظت إرثاً إنسانياً عظيماً على مدى قرابة ألفي عام فصبت في مجرى الثقافة،

www.mtenback.com

واللغة العربية حين ورثت الأمة العربية الإسلامية والحضارة الإسلامية الحضارات القديمة، ورثت تعاليمها وفكرها وورثت ثقافاتها، وأهمها الكتب التي أنزلت على الرسل السابقين والأنبياء الأولين وورثت العلوم العامة، وكانت بكل ما ورثت آخر اللغات التي نزل الوحي بها، وجمعت فضائل الألسن القديمة، وحفظت تراث الأمم السالفة، واستفادت منه وأضافت إليه، وهي ثقافة ذات تميز أكسبها الخلود والبقاء، وهي لغة لها انتشار كبير في أقطار المعمورة في الماضي. أما في الحاضر فهي لغة شعوب تمتد امتداداً لا نجدله مثيلا في بعده وسعته وتنوعه، ودون فواصل أو حواجز عرقية أو لغوية أو جغرافية، إذن فثقافة اللغة الفصحى - كما هو واقعها - ثقافة غنية حية، ولغتها عربية فصيحة متميزة بين اللغات القديمة ذات الرسالات الدينية والحضارية، ولغة نموذج متميز أيضاً بين اللغات الحديثة. وهي على أمل الانتشار الواسع في المستقبل، فاللغة العربية لغة الوحدة والانتماء الواضح الذي تنشده كل أمة تعتز بلغتها وذاتها وشخصيتها، وتمد حاضرها على مساحة الأرض التي تعيش عليها شعوبها وسكانها.

وإذا أردنا ثقافة قوية مؤثرة في وجدان المتلقي، فيجب أن تكون اللغة التي تحمل إلينا مجمل الثقافة وتفاصيلها، لغة حية قوية سليمة من العاهات والأمراض التي تضعف قدرتها وتحمُّلها، وطبيعة اللغة وطبيعة

www.mtenback.com

الحياة توجبان استمرار الرعاية الدائمة والمتابعة المستمرة لنموها، وحياتها، حتى لا تتجاوز الأشياء طبيعتها، ولا تترك الأحداث على سجيتها، واللغة كائن حي متطور يحتاج إلى رعاية، ويحتاج إلى توجيه في نموه وتطوره نحو السياق الذي ينسجم مع أهميته والحاجة إليه. واللغة كالشجرة الوارفة التي تنتشر أغصانها وتتهدل حولها وتتسع بجانبها، وإذا لم تقطع الأغصان المائلة وتشذب الشجرة تحولت أغصانها إلى أحراش ونباتات ضارة ضعيفة وهي وإن عاشت في كنف الشجرة الوارفة وامتصت الماء الذي ينساق في أصلها وحرمتها الظل والشمس، إلا أنها عامل لإضعاف الأم كلما قويت تلك الأغصان المحيطة بها وكلما امتدت فروعها بعيداً عن أصلها وتشعبت اتجاهاتها وانحرفت عن نسق الشجرة الأصل وسمّوها. تلك أقرب صفة ومثل للغة الفصحى مع العامية أو مجموعة العاميات، لأن اللهجات العامية تبدأ بجانب اللغة الأم وتعيش معها وفي كنفها ثم تأخذ في الانحراف عنها، والإحاطة بها، والانتشار حولها حتى تحول دون سهولة الوصول إليها، فيصعب على الأقدام الضعيفة التجاوز إلى الأصل القوي النافع، وعندئذ تقف في مطامن العامية ويتعثر سيرها في الأحراش، ويظن العاجزون والمتعللون بالأسباب أن هذا يغني عن برد الدوحة الباسقة والشجرة الظليلة، وقد تقوم الأحراش الطارئة مكان الشجرة المستديمة إلا إذاوجدت من يتنبه

www.mtenback.com

لها ويميز الأصل من الفرع ويقوِّم اعوجاج الأغصان المتهدلة والمنحرفة ويحمي الدوحة الظليلة من عدوان الفروع الضارة المتهدلة.

والثقافة العربية ولغتها تعيش حاضرها في محيط متلاطم من أحراش العامية، وتخوض حرب البقاء دفاعاً عن ذاتها، وعن موروثها الحضاري على الرغم مما تواجه من صور التحدي، ولا سيما عندما يتشبع الناس بالثقافة العامية، وتكون هذه الثقافة هي المرجعية الفكرية والأدبية، فيعجبون بها ويجد الكثير من أبناء العربية أن الثقافة العامية ميسرة له، سهلة لديه فيميل إليها ويستعملها ويتفاعل معها، ويظن أنه يستطيع بثقافته العامية أن يستغني عن الفصحى، عندئذ تحدث حالة من الانفصام الثقافي وحالة من الازدواج اللغوي ويخدع المثقف نفسه أحيانا بشيء من التبرير لاستعمال العامية في الشؤون الثقافية والفكرية والخطاب العام، وقد يكون لمبرراته أسباب كثيرة بعضها خارج عن مدى تصوره وإدراكه لوظيفة اللغة وطبيعة الثقافة التي جعلت اللغة وعاء لها، ويختلط عليه الأمر بين سمو الثقافة الفصحى وتميزها وبين ضرورات العامية التي تقوم بها في كل ثقافة وفي كل لغة. كما أن وظيفة كل منهما تخفى بعض الخفاء حتى على الخاصة من الناس، فمابالك بأمر العامة الذين لا يعرفون في حياتهم سوى استعمال العامية من خلال ممارسة الثقافة الشكلية؟.

وقد تناول هذا الجانب الأستاذ عبدالله محمد الناصر وهو مثقف له إسهامه في الوعي الكتابي ومعرفة بالعامي الذي يحسنه ولكنه يعرف

www.mtenback.com

الحدود التي يصلح لها، وتلك التي لا يجب أن يتجاوز إليها فقال:«ومهما اختلفنا في الجدل حول الشعر العامي أو النبطي أو الشعبي.. فإن هذا الشعر لا يعبر عن ضمير الأمة ولا عن وعيها الجمعي إنما يعبر عن نشاط أدبي إقليمي ضيق لا يمكن أن يوصف بالثقافة الراقية أو الثقافة الأممية بل إن الشعر العامي نقيض حقيقي للثقافة العميقة والأصيلة بدليل أن هذا الشعر يمكن أن يمارسه نظماً ووعياً أولئك الذين لا يجيدون حتى القراءة والكتابة فهو شعر لا يشترط فيه الانتماء إلى ثقافة متعمقة أو ثقافة راقية متطورة أو متقدمة، وهذا لا ينفي كونه شعراً أو كونه لوناً من ألوان الأدب، فجميع العناصر الفنية متوفرة فيه، وهو من هذا المنظور يختلف ويتباين من ناحية الجودة والرداءة والضعف، ولكنه يشكل حالة تصادمية مع اللغة... كما أنه يمثل حالة تصادمية أو تناقضية مع الثقافة الأصيلة لأنه يشكل بنية ثقافية أخرى تختلف نمطاً ووعياً وعمقاً وسلامة لغة، وهذا بدوره يخلق بل خلق ازدواجية ثقافية أو ثنائية ثقافية، فتشكلت لدينا ثقافتان أو بالأحرى أدبان، أدب يمثل الثقافة العليا للإنسان العربي، وأدب أو شعر آخر يمثل وعيا لا ينتمي إلى تلك الثقافة العربية الشاملة انتماءً كاملاً وهذا شطَّر الهوية الثقافية وميزها إلى كتلتين فنيتين نقيضتين.. إنه ليس أدبا محايداً، فمادته هي اللغة نفسها لكنها اللغة القاصرة عن التكامل سواء في النظام البنائي أو الدلالة.. إننا نرتكب خطأً فادحاً وفاحشاً في

www.mtenback.com

تشجيع الأمية من خلال الأدب أو الشعر الشعبي الذي صار يصارع الأدب الفصيح ويحاصر الثقافة الأصلية ويضيق الخناق عليها.. اللغة أشبه شيء بالسلوك، فهناك سلوك رسمي يتمثل في المظهر العام للفرد في مجتمعه، وهناك سلوك شخصي خاص لا يمارسه الفرد إلا مع نفسه أو مع خاصته، وكذلك اللغة فهناك لغة محلية بسيطة يتداولها الناس في حياتهم العادية بكثير من التحرر وعدم التقيد أو الالتزام، ولغة رسمية تمارس في الحياة الرسمية والمظاهر الرسمية وهذا موجود لدى جميع الأمم فيما أظن، لكن اللهجة أو اللهجات المحلية تظل لهجات أو لغات مهادنة لها حدود لا تتجاوزها، وتظل في إطارها البسيط فلا تدخل مجال الثقافة الرسمية التي تميز الأمة سواء على مستوى الشعر أو النثر. إذ لا توجد على حد علمي أمة لها أدبان متوازيان أو ثقافتان متوازيتان لا أعرف أن الصحافة الانجليزية تنشر شعراً فصيحاً وآخر عامياً ولا الفرنسية ولا الألمانية، فالأمة ذات اللغة الواحدة لها ثقافة واحدة، هذه اللغة هي التي تخلد حضارتها وتاريخها وتعبر عن فكرها وفنها وهذا لا ينفي وجود أدب هامشي لتلك الأمم لكنه ليس لسان حال الأمة ولا لسان الثقافة» (١).

إن الحاضر يشهد خللاً بيناً في فهمنا لوظيفة الثقافة المعبرة عن وجدان الأمة، وفي فهمنا لاستعمال ضرورات العامية الثقافية واللغوية حيث انتقل

(١)عبدالله محمد الناصر – من يوقف زحف الشعر الأمي، جريدة الشرق الأوسط ١٤١٧/٥/٣ هـ، ١٩٩٧/٩/٤م.

www.mtenback.com

الحال في الوقت الحاضر من استعمال العامية الصامت إلى الطرح لها على ساحة الواقع الاجتماعي، وبدأت أقلام وآراء عربية تطالب بإعطاء الثقافة العامية مساحة للحضور والظهور والعمل لمشاركة الفصحى حقها، واستعمل في هذا الطرح وسائل التثقيف العامة، ومصادر المعرفة المشتركة، ونزلت العامية بقوة إلى ميدان الفصحى حتى بلغ الأمر حد الخطر الذي نخشاه على مكتسباتنا القومية والثقافية والاقتصادية والتربوية، وعلى شخصيتنا العربية، وعلى وحدتنا وكياننا العربي، ولقد حيَّر هذا الوضع المفكرين المتأملين فيه والناظرين إلى طبيعة اللغة والناس، فهذا الأستاذ الدكتور راشد المبارك وهو من نعرف رأيه في الفكر الإنساني والثقافة، وتمييزه لحركة المجتمعات وصيرورتها، يحتار في أمرنا مع لغتنا فيقول :«من المحتم أن يجد علماء النفس والاجتماع صعوبة بالغة أو تعذراً في تفسير أو تبرير هوان لغتنا علينا، أي هواننا على أنفسنا إلا إذا أخذوا بتفسير واحد فقط هو هزيمتنا الداخلية أمام الزحف الوافد من وراء البحار.. ثم يضيف قائلا :«الأمم لا تفنى فناء مادياً أي فناء عرقياً ولا تختفي كما تختفي المادة المذابة في سائل مذيب، ولكنها تفنى أو تختفي حضاريا. وأوسع الأبواب المؤدية إلى ذلك هو انحصار واندثار لغتها أو أن يحكم على هذه اللغة بالإقامة في متاحف الآثار»[1] وبنظرة سريعة واستعراض موجز للآراء التي تسوغ العامية

(١) راشد المبارك - حتى لا تتصدع الحصون، جريدة الجزيرة، ١٤١٩/٥/٤هـ، ١٩٩٨/٨/٢٦م.

www.mtenback.com

وتدعو إلى ثقافتها نجد أننا أمام توجه عارم إلى العامية وإلى أدبها وشعرها ولغتها وأن أصحاب هذا التوجه يتوزعون على الوطن العربي كله ويقومون بعمل منظم تؤيده بعض وسائل الإعلام وتنشره للناس متجاوزة مركزية الثقافة الفصحى وشموليتها إلى محلية العامية وضرورتها، وقد اختلفت آراء أصحاب التوجه إلى الخصوصيات المحلية والثقافات الإقليمية والقطرية، واتخذوا للغة هدفا قبل الثقافة فتحدثوا عن واقعها، وماصارت إليه. وزعم بعضهم أن ضعف الثقافة العربية سببه اللغة التي ضعفت عن أداء رسالتها أو بمعنى أقرب ضعف أهلها عن القيام بإصلاحها، واختلفت آراء أصحاب التوجه العامي فأشدُّها تطرفاً من يدعو إلى أن تحل اللغات العامية محل الفصحى ويصفها بأنها أصل معطوب وأنها قد انقطعت عن الحياة وانقطعت الحياة عنها [1] ومنهم من يرى أن تطعم الفصحى بالعامية وتخلط معها ويصف الفصحى بأنها عزلت عن معظم مجالات الحياة قرونا طويلة حتى قلت طواعيتها للتعبير الحي الدقيق وخير وسيلة لمدها بروح الحياة – كما يقول – تطعيمها بإيقاعات اللهجات العامية[2].

وثالث يرى أن علينا أن نخاطب الشعب بلغته لأن الفصحى – في رأيه – عاجزة عن هذا الدور، ويرى أن تكون الفصحى لغة المنظومة

(١) صلاح الساير، جريدة السياسية الكويتية عدد ٦٦٦٩ في ١٤٠٧/٧/٢هـ الموافق ١٩٨٧/٣/٢م

(٢) البشير بن سلامة. وزير الثقافة التونسي – نظرية التطعيم الإيقاعي في الفصحى.

www.mtenback.com

التربوية للتعليم الأكاديمي وهي صالحة لذلك، أما أن تكون لغة الفنون والتعبير عن مشاعر الشعب وقضاياه فيعتقد أنها غير قادرة على ذلك وسيكون للأدب العامي مستقبل زاهر بكل تأكيد(١).

وفي وسط البلاد العربية نجد صوتا آخر يلح على إقليمية حادة ويقول عندما سئل عن العامية :«أرى أن المصريين اكتسبوا مساحات كبيرة بفضل صلاح جاهين وعبدالرحمن الأبنودي، وفؤاد حداد وغيرهم وأصبح هناك تجاوب بين الفصحى والعامية. ولم تعد الأخيرة مدعاة للزراية، فقد أثبت هؤلاء أن من الممكن معالجة كافة الموضوعات بها ثم يتناول قضية الأدب فيقول: «لا أعرف كيف نلفق نوعا من الأدب ليعبر جميع الدول العربية. لذلك لا أعتقد أنه من الممكن أن يكون هناك أدب يعبر عن الوطن من المحيط إلى الخليج»(٢).

ويأتي صوت من المغرب العربي ليقول :«إن العربية باتت مشكلة كل العرب حتى عرب مئة في المئة مازالت العربية تتعثر عندهم ومازالت لا تتعدى لغة القراءة والكتابة، العربية لم تصل بعد إلى لغة العمل مما جعلها أشبه شيء بلغة ميتة لقد أصابها أهلها بالقصور،

(١) كاتب ياسين من الجزائر.

(٢) لويس عوض، جريدة السياسة الكويتية العدد ١٧٥٧ في ١٤٠٧/١/٤هـ الموافق ١٩٨٧/٥/٣١.

www.mtenback.com

لأنهم وأقول بمرارة أهل قُصَّر عُجَّزٌ، ألا نستحي ونحن نطوي الصفحات الأخيرة من القرن العشرين ولا معجم لنا يساير العصر، لذلك لا غرابة أن يتجه البعض إلى الدارجة أو العامية للتعبير لأنها «لغة» حية بحكم سعة التعامل بها ولتغلغلها في عامة الناس تخاطبا وعملا، أما اللغة البربرية التي هي من فصيلة العربية فأنا معها كوسيلة تعبير بشرط أن تكتب بالحرف العربي حتى تبقى مربوطة إلى لغة الإسلام»[1].

هذه الأقوال هي أقوال كبار المثقفين من الوطن العربي شرقه وغربه، أتيت بها واخترتها لأنها تمثل موقفا من الثقافة الفصحى، ولغة الثقافة الفصحى، واخترت أشخاصا يتوزعون توزعا جغرافيا مناسبا فأخذنا من أقصى الشرق العربي واحداً من الكويت ومن أقصى المغرب العربي آخر« الجزائر» ومابين هذين الطرفين من البلاد العربية أخذنا رأي كاتبين آخرين من المشهورين والمعروفين الذين يقرأ لهم العرب كافة، وآراؤهم منشورة في وسائل الإعلام العامة المتاحة لكل القراء العرب، وهم يدعون دعوة صريحة إلى تقويض أساس الثقافة العربية الفصحى وهي اللغة الوعاء الحاضن لكل الثقافة العربية، وماهذه الأقوال إلا نماذج مختارة من أقوال كثيرة مكررة لعدد من الكتّاب الذين يعيشون في

(١) محمد المطوي العروسي، جريدة «الرياض»، العدد ٨٦٢٠ في ١٤١٢/٧/٢٦هـ الموافق ١٩٩٢/١/٣٠م.

www.mtenback.com

المحيط العربي، ويتكلمون لسانه ويشاركونه ثقافته، وموقفهم هذا لا يعدُّ عدوانا على اللغة فحسب بل هو دعوة للانفصال عن الموروث الثقافي الذي حوته العربية الفصحى، وهم في الوقت نفسه يشيدون بالعامية ويخلعون عليها ماليس فيها، ويمجدونها، وإذا كانت آراء هؤلاء الذين ذكرنا وغيرهم ممن لم نذكر يظهر فيها البعد عن الحقيقة ويتبين فيها الموقف الجلي من اللغة وموروثها الحضاري والثقافي قبل الموقف من وظيفة اللغة بوصفها عامل اتصال بشري، فإن مايخفف هذه القسوة التي يوجهونها إلى صميم اللغة ويخفف وقع هذه السهام التي يطلقونها على جسدها هو معرفتنا بواقع الثقافة المكتسبة للكثير من مثقفي الوطن العربي واهتزاز صورة الثوابت عند هؤلاء المثقفين. فالعربية يحافظ عليها من يحترمها لأنها لغة الإسلام ولغة العرب ولغة الوحدة العربية الشاملة. وقد أشار الذين يتابعون مسيرة اللغة وثقافتها إلى المحاذير التي يقع فيها أغلب المجتهدين في آرائهم والمنظرين للواقع الظاهر دون الوعي الكامل لوظيفة اللغة الذي تؤول إليه إذا لم يحافظ على مكانتها وتحترم قدسيتها ويعرف حقها في الحياة.

والمثقف الذي يهادن الواقع المحلي في وعاء ثقافته مثقف مزيف للوعي ومخاتل للحقيقة. وقد نبه بعض الدارسين إلى وجوب الوعي الصحيح في ممارسة الهمِّ الثقافي كجزء من الهوية الصحيحة التي تحدد

www.mtenback.com

مدلول المثقف وتعرفه تعريفا صحيحا حيث يقول: «إن المثقف الذي يدير شأنه الفكري والأدبي والإبداعي بلغته القومية وهو يخط ويكتب ويدوّن وينشر ويسجل، ثم إذا حاور أو ارتجل أو تحدث عبر أمواج الأثير أو على شاشات المرايا توسل باللهجة العامية، لهو مثقف متواطىء على ذاته الثقافية، ولا يعنيك منه ماقد يبدو عليه من نزعة المجهود الأدنى انسياقاً مع الكسل الذهني أو اتقاء لركوب المحاذير إنه يهيىء المشهد الأول من تراجيدية الانتحار الجماعية» (١). هذا الانتحار الجماعي الذي تطرق إليه الكاتب لا يأتي من الخارج ولا تثيره العوامل الاقتصادية أو السياسية، ولكنه انتحار تفرضه أو تحتمه ميول عند بعض المثقفين العرب إلى المحلية القطرية واللهجة العامية عندما تكون الشخصية القومية في أدنى مراحل الشعور بأهميتها وقيمتها الحية لتمثل أو تنوب عن شخصية الأمة، وهو ما استرسل الكاتب في وصفه قائلا: «فيما مضى كانت اللغات الأجنبية عدواً أيدولوجيا يوم كان الصراع الحضاري معتمداً على الاكتساح العسكري وكانت المذهبيات رأس الحربة في المعركة أما اليوم في صراع الكونية الثقافية المحتمية بعباءة الأممية السياسية والعولمة الاقتصادية فإن اللهجات المهددة لبقاء اللغة

(١) عبدالسلام المسدي- اللغة والإنذار الثقافي جريدة «الرياض» ١٠٨٦٠ في ١٤١٨/١١/٢١ هـ - ١٩٩٨/٣/١٩.

www.mtenback.com

القومية الفصحى هي العدو الثقافي الأشرس لأنها انتصبت حليفا موضوعيا للكونية الغازية، ولأنها بين أيدي فرسان العولمة وسدنة الأممية ومهرة التدويل حليف استراتيجي ليس كمثله لها حليف»[1]

وإذا كان المدُّ العالمي للثقافة الغربية أوجد في النفس العربية الشعور الدوني وشعور التقصير عن مستوى الثقافة الغربية في مضمونها الحضاري وفي تطبيقها العملي فإنه أمام هذا الشعور بالعجز والدونية جاء البحث عن سبب النقص الذي يعانيه المثقفون في وعيهم لأبعاد ثقافتهم العربية، لأنهم انقطعوا عنها وعجزوا عن تمثلها تمثلا صحيحا فكان البحث عن سبب العجز والشعور بالدونية، وكانت البدائل وكان التفكير فيها. وقد لجأ أغلب الناس إلى العامية تساوقاً مع التغيير الذي يحبذه بعض العامة وأشباه العامة كما اتجه البحث نحو الشعبيين الذين يبحثون عن أماكن لهم على سطح الواقع الاجتماعي تتيح لهم الظهور ولو قليلاً في حين أن ليس لهم قدرة يظهرون بها غير الشعر العامي والشعبي أو مايشبه ذلك، ثم إن هذه القدرة أصبحت أمراً مشكوكاً فيه، فقد تحدث الكثير عن شراء بعض من يسمون شعراء العامية للشعر، واستعانتهم بأناس قادرين على العامية نظما، محتاجين

(١) عبدالسلام المسدي، اللغة والانذار الثقافي، جريدة «الرياض»، ١٠٨٦٠، ١٤١٨/١١/٢١هـ / ١٩٩٨/٣/١٩م.

www.mtenback.com

إلى المال نقداً، فَو=وُجِدَ من أهل النقد من يشتري مواهب أهل الحاجة، وقد راجت في منطقة الخليج خاصة السوق السوداء للشعر، وظهرت قوية حتى أصبح عدد كبير من منتحلي الشعر هم أصحاب الملايين الذين يستطيعون دفع الثمن المطلوب للشاعر العامي المطبوع، وتجاوزت قدراتهم المادية شراء الشعر العامي إلى القدرة على نشره، وتأسيس المجلات الشعبية له، وقد أشار أحد الكتّاب إلى هذا السلوك المترف للعامية ولشعرائها فقال في مجلة الدعوة: «أكثر من عشرين مجلة مختصة بالأدب الشعبي في دول الخليج، تغتال اللغة الخالدة كل أسبوع، وتهزأ بحافظ الفصحى ومجتمع الخالدين من ورائه، وكأن الخليجيين يصدرون مجلة شعبية جديدة مع كل ملتقى وزاري للثقافة والتعليم مؤكدين أهمية الفصحى ونبذالعامية والغول الشعبي، لماذا هل الخليجيون هم دون خلق الله كلهم يستعصي عليهم الإبداع بالفصحى وامتلاك زمامها؟ أو يتلقى الخليجيون صغاراً في مدارسهم لغة غير الفصحى، إنك لن تجد في تلك الأسئلة جميعها جوابا تقنع به ويشفي صدرك إن كنت من أهل الفصحى»[1]. ثم يجيب الكاتب عن السبب الذي جعل الخليجيين

(١) ماجد بن محمد الماجد - الخليجيون يغتالون الفصحى، مجلة الدعوة، العدد ١٦٣٠ في ١٤١٨/١١/٢٢ هـ - ١٩٩٨/٢/١٩م.

www.mtenback.com

يهتمون بالعامية هذا الاهتمام ويختصون بها من بين الدول العربية وشعوبها، ويعلل ذلك تعليلا ماديا ويدلل على ما أشرنا إليه سابقاً من الوفرة المادية في أيديهم والبحث عن الظهور الذي لا يجدونه إلا في العامية فيقول:« والحق أن الخليجيين لا يختلفون في موقفهم من لغتهم عن غيرهم سوى أنهم يمتلكون القدرة المالية – ومن العصمة ألا تَقْدِر – على إصدار تلك المجلات التي لا تكلفهم سوى دار نشر قبرصيّة وموزع داخلي وشقة صغيرة وحفنة ممن يفك الحرف ويعجن ذلك السفه المسمى بالشعر العامي».

إن القدرة التي أحدثها التحسن الاقتصادي والوفرة المادية في بعض البلاد العربية، ولا سيما دول الخليج أعطت نتائج عكسية لما يؤمل منها للثقافة، فالمفروض أن يرقى مع الثروة الذوق العام للناس وأن يرتفع مستوى تفكيرهم، وينمو شعورهم بالواجب الثقافي نحو القاسم المشترك للعرب كافة، ولكن الذي حدث هو عكس مايجب أن يكون، إذ اتجهت عقول هؤلاء الأثرياء الجدد إلى العامية المحلية وإلى القطرية اللغوية، والتمست الحيوية والنشاط فيهما في حين خمدت حركة التميز وماتت روح الإبداع وتمزقت أوصال الانتماء للثقافة العربية الأصل، وكونت الثروة النخبة القادرة على التأثير، وقد استعمل المال ومايصحبه من جاه لتشويه وجه الثقافة المحلية وزحزحت الثقافة الفصحى. وقد

www.mtenback.com

ساعد على هذا التمزق الثقافي وحاصر المد العربي القومي والشعور بالانتماء إلى الثقافة العربية صورة الواقع الذي آلت إليه الأمة العربية ذات الثقافة الواحدة وهو تمزق أظهر في الجو العربي العام تكتلات كبرى داخل الوطن العربي نفسه، بدأت هذه التكتلات تنحاز جغرافيا وسياسيا ثم ثقافياً، واتخذت هذه التكتلات مجموعات قطرية كما حدد ذلك النص التالي: «من الممكن التمييز بين ثلاث مجموعات رئيسية تكونت أو أنها في طريقها إلى التكون على أساس تشابه التجارب الوطنية الحديثة والظروف الاقتصادية أكثر مما هي نتيجة الخصوصيات الأقوامية «الأثنية» مجموعة دول الخليج الذي يوحد في ماينها عامل وجود الثروة النفطية الكبيرة مقارنة بعدد السكان، ومجموعة المغرب العربي التي تتبلور أساسا على قاعدة تشابه تجربة الاحتلال الفرنسي واستمرار آثارها، والمجموعة المكونة من مصر والسودان والعراق وسوريا ولبنان والأردن واليمن التي تحتل موقعا وسطا بين المجموعتين الأخريين، وتتميز عن الأولى بالكثافة الكبيرة في السكان مقارنة بمحدودية الموارد، وعن الثانية بالتعريب الشامل للنخب المحلية أو بالأحرى بغياب المعركة اللغوية»[1].

(١) برهان غليون - المحنة العربية، الدولة ضد الأمة ص ٨١. .. الطبعة الأولى ١٩٩٣ الثانية ١٩٩٤م مركز دراسات الوحدة العربية.

www.mtenback.com

هذا التقسيم الذي سماه النص «جيوسياسي» كان واضحاً اتهامه للثقافة القطرية، واحتمال أن يؤدي هذا التكتل الإقليمي إلى مايتبع بالضرورة وهو التكتل اللغوي والثقافي حيث لا محيص من إنتاج ثقافة تستجيب للممكن السياسي والإقليمي القطري، وتدفع إلى شكل من أشكال التعبير عن الهموم الخاصة والعامة لهذا القطر أو ذاك باللغة المحلية، وهذا التعبير سيكون منعكسا ضرورة على الواقع الذي يميز كل تكتل ويشخصه، وقد بدأ الاهتمام الثقافي اللغوي في أوضح صورة في دول الخليج العربية، وهي إحدى الكتل الثلاث المهمة في الوطن العربي، إذ ظهر جليا اهتمام الخليجيين عامة بلغة مشتركة بينهم ليست هي الفصحى وليست هي لغة الأمة ولا لغة الثقافة الرسمية، ولكنها اللغة العامية النبطية، والشعرية الحديثة، وقد أصبح تبلور المفهوم اللغوي والثقافي الشعبي أهم مايميز هذه الثقافة لدول المنطقة. وفي خضم هذا المنحى الإقليمي اللغوي كانت الجنادرية ومايقدم فيها في كل عام موضع نظر وتساؤل بدأ محليا عند أول مهرجان أقيم باسم الجنادرية ومثّل المنحى الإقليمي اللغوي أصدق تمثيل وبدأ نشاطه الثقافي قوياً مؤثراً، والتوجه العامي هو الغالب عليه مع مشاركة الثقافة الفصحى، وبعد فترة طويلة نسبياً من المهرجانات السنوية بدأت تطغى العامية على الفصيح، والمحكي على المكتوب. وقد تناولت ذلك في مقال نشر في جريدة «الرياض» قلتُ فيه: في الجنادرية رقم واحد كان الجميع مع

www.mtenback.com

الجنادرية، نموذجاً ثقافياً وحدثاً جديداً على الساحة المتطلعة لكل جديد، كان الصوت المخالف للتوجه العام في ذلك العام هو صوت كاتب هذا المقال، عندما أظهر في الندوة الأولى التي عقدت في الجنادرية رقم واحد تحفظه على ماسيحدث للثقافة العربية الفصحى، وماسينالها من تأثر قادم مع الجنادرية كل عام، وهو يعرف أن رأيه مخاطرة غير محسوبة العواقب، وقد لا تكون الشجاعة هي التي دفعته للموقف المغاير بقدر مادفعه حرصه على أن ينبه على ما ستأتي به الأيام.

وقد تحمل تبعات رأيه ووقع على رأسه أكثر من ضربة، شعراً ونثراً، فتلقاها بصدر رحب محتسباً أجرها في سبيل الثقافة العربية الفصحى.

وفي الجنادرية رقم «١٣» شعر بالارتياح الذي يمازجه شيء كثير من الحزن عندما سمع صراخ الذين كانوا يصفقون لتلك الضربات الموجهة إليه وعرف صدق توقعه عندما [١] استمرت الجنادرية واستمر التحيز اللغوي العامي حتى أدرك العرب الذين تستضيفهم الجنادرية كل عام أن دول الخليج شرعت في خلق ثقافتها العامية، وكونت توجهها العامي وميلها عن الثقافة العربية الفصحى، وكان الهمس في كل سنة وفي كل مهرجان يتردد بين الضيوف العرب المدعوين فيسكتهم عن الجهر به

(١) مرزوق بن تنباك، بين الجنادرية رقم واحد والجنادرية رقم «١٣»، جريدة «الرياض» العدد ١٠٩٣٧ في ١٤١٩/٢/١٠هـ - ١٩٩٨/٦/٤م.

www.mtenback.com

ضروب اللطف العربي والضيافة المتميزة التي يلقونها من المهرجان والقائمين عليه، فيغضُّون الطرف على مضض، ويناقشون الواقع الثقافي الجديد في الخليج فيما بينهم، ولا يكاد أحد منهم يتجاوز النقد الشفاهي لما يحدث في الجنادرية من ثقافة خليجية عامية بعيدة عن فهمهم بغيضة إليهم، حتى بلغ الأمر بالجنادرية حدّ التحيز الكامل إلى العامية الثقافية، وبلغ الأمر بضيوف المهرجان حداً لا يغطيه مايلقون من كرم الضيافة، إذ أصبح الأمر يتعلق بمعنويات الضيوف العرب وبمكانتهم الشعرية والأدبية، عندما يأتون في تقدير المشاهدين وجمهور المهرجان العامي من مسافات بعيدة وراء شعراء العامية والشعبية. وقد وصل الأمر بهم حدّ الضيق الشديد، غيرة على مشترك الثقافة قبل أن يكون الأمر غيرة على أنفسهم، وقد بدأ النقد اللاذع لهذا التوجه منذ العام الماضي ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م. عندما انحازت الجنادرية كلية إلى العامية وتابعت هذا الانحياز في عامها هذا. وقد تجرد لنقد تجربة الجنادرية العامية كل الذين يتابعون الثقافة العربية الفصحى ويحملون لها احتراما وتقديرا. وهذا الدكتور منصور الحازمي وهو أحد المتسامحين جداً مع العامية والشعبية يعلن الاعتراض المبرر على مايحدث من فصم عرى الفصحى في أرضها، في مقال طويل كتبه في جريدة المدينة جاء فيه:«في خضم هذا العرس الصاخب للشعر النبطي انكمشت الفصحى

www.mtenback.com

ونسي الناس البواردي والقصيبي والعيسى، فضلا عن نجوم الحداثة من أمثال الدميني، والثبيتي، والصيخان الذين كانوا ملء السمع والبصر قبل سنوات قليلة. وقد لاحظ ذلك بعض الإخوة العرب الذين حضروا مهرجان الجنادرية هذا العام، وهاهو الأستاذ شوقي بزيع يقول: إن العامية أجْلَتْ حتى أولئك الشعراء المشهورين على الساحة العربية «كان سهلا لدى من يتتبع الأسماء والوجوه الشعرية المشاركة في المهرجان أن يدرك غلبة المحكي على الفصيح وأن يلحظ بوضوح اهتمام المضيفين الخاص بشعراء العامية الذين بدأوا أكثر زهواً من زملائهم الفصيحين» ويذكر من شعراء العامية الذين بدوا أكثر زهوا من زملائهم الفصيحين عبدالرحمن الأبنودي وطلال حيدر وفهد عافت الذين سلطت عليهم الأضواء واستقبلوا استقبال الفاتحين .أما شعراء الفصحى فقد بدوا شبه غرباء وسط ذلك الحشد المنتصر للغة المشافهة والعازف عن كل مايجهده ويدفعه إلى صلب الأسئلة المقلقة، لذلك فقد بدت نجومية عبدالوهاب البياتي ومحمد الفيتوري وعلي الشرقاوي كأنها تلمع في سماوات أخرى أو تنير فضاء آخر»[1] هذا نص نقله الكاتب عن أحد رواد المهرجان العرب أهل الفصحى الذين وجدوا العامية ولغة المشافهة كما يسمونها قد أغلقت الأفق الذي يرون منه الجنادرية، بل يرون منه ثقافتنا

(١) منصور الحازمي، - ملحق الأربعاء ... المدينة في ١٤١٨/١٢/٢٥ هـ.

www.mtenback.com

الفصحى، ويتلمسون أصالتنا العربية، ونحن أبناء الفصحى وسكان منبتها الأصيل، وهم يظنون أننا لن نقبل أن نحول اتجاهنا عنها بهذه السرعة حتى لو أعجزنا الإبداع بها، أو أعجز بعضنا، كانت لغة نقد حادة توجَّهَ بها إلينا العربُ الذين نستضيفهم ليروا ثقافتنا، ونحفزهم على الثناء عليها، وفي الوقت نفسه نعتز بأننا نحن أهل الجزيرة العربية مهد الفصحى ثقافة ولغة، ودِيناً، جاءوا إلينا فوجدونا لازلنا في عصر المشاهفة وعصر العامية. وهذا الدكتور الحازمي يواصل حديثه مسترسلا مع النقد الذي وجهه ضيوف الجنادرية فيقول: «إن هذه الصورة البليغة التي رسمها شوقي بزيع عن أمسيات المهرجان الشعرية لا تحتاج إلى تعليق، فلنلاحظ قوله عن اهتمام المضيفين الخاص بشعراء العامية الذي يؤكد تعمد منظمي المهرجان لهذه النتيجة المحزنة التي انتهت بانتصار العامية، وتقهقر الفصحى، حينما أفسحوا المجال لهؤلاء الشعراء الشفهيين أن ينافسوا تلك النخبة الممتازة من شعراء الكتابة.. فقد بدوا شبه غرباء - يقصد شعراء اللغة الفصحى - وسط ذلك الحشد المنتصر للغة المشافهة والعازف عن كل مايجهده ويدفعه إلى حلبة الأسئلة المقلقة، غير أن هذه العبارة تحمل هجاءً مبطنا لجمهورنا شبه الأمي وهجاءً آخر لشعراء العامية الذين يحنُّون دوما إلى البساطة والمباشرة»[1].

(١) المصدر السابق.

www.mtenback.com

وينتقل الكاتب إلى التغير الذي حصل في تطور المهرجان وهو يتابع رحلته التاريخية وينتقد التحول الخطير في فلسفة المهرجان وتصور أهدافه التي تحولت عن أهداف الثقافة والتراث إلى التراث العامي وحده، فقد كان للتراث العامي حيز في فعاليات المهرجان فأصبح المهرجان كله للعامية فيقول: «ويبدو أن مهرجاننا الوطني للتراث والثقافة قد اعترف فعلا بشعراء العامية من غير أن يعرض اعترافه هذا على الجامعات. حقا إن المهرجان كما يدل اسمه عليه، يجمع بين التراث والثقافة وأنه كان يعترف بالشعر الشعبي منذ بداياته الأولى، ولكن شعراءنا الشعبيين فيما مضى كانوا يؤدون أدوارهم ويتحاورون وينشدون ضمن الشق الأول من مهمة المهرجان وهو التراث، أما انتقالهم إلى الشق الثاني وهو الثقافة فلم يتم إلا مؤخراً. وفي ذلك موضع النظر، ذلك لأن التراث الشعبي، ومنه فن القول، يتسم دوما بالمحلية، أما الثقافة فهي تتجه إلى الأمة بكاملها، فينبغي أن يكون لسانها الوحيد هو اللسان الفصيح الذي يعرفه الناس جميعاً حتى الأميون منهم ولا إخال إخواننا العرب يطربون لشعرنا العامي أو يفهمون أكثره»[1].

(١) المصدر السابق.

www.mtenback.com

والدكتور منصور أديب معروف وناقد تميز بروح التسامح، لكن دون أن تمس الحرمات ويصل السيل الزبى، وحتى عند هذا الحال كان لبقاً في نقده للواقع المنحرف وللتحول الخطير في أهداف المهرجان الجنادري، ولو شاء لقال:إن المنظمين للمهرجان لم يكتفوا بعاميتهم التي يعرفون ويقولون إنها تمثل لهم تراثاً وتاريخاً، ولكنهم استضافوا عوام العالم العربي، وجاءوا بزجَّاليه الذين لا نفهم نحن مايقولون، ولا يفهم ضيوفنا العرب هذه الزفة البائسة التي يرددها العوام وأشباه العوام، فعلى أي أساس استضافت الجنادرية عبدالرحمن الأبنودي، وطلال حيدر، هل هذا كله للتأكيد على انحرافها عن الأهداف الثقافية المرسومة لها، أو هو إمعان ونكاية بالفصحى لغة والفصحى ثقافة ووعاء للعروبة والإسلام؟ إن لجنة الاختيار للجنادرية لا تستحق هذا اللطف من الدكتور منصور، ولكنها تستحق اللوم لانحرافها الشنيع عن الأهداف الوطنية والقومية والعربية التي تسعى هذه البلاد لتأكيدها وتأصيلها، بدل القضاء عليها، واللجنة هذه مسؤولة مسؤولية مباشرة عن التطور في الخطأ الفادح في حق اللغة والدين والأصالة العربية. وقد استثارت مقالة الدكتور منصور الحازمي أستاذاً أكاديميا آخر عرف أيضا بتسامحه مع الشعبي والعامي، ولكنه وجد نفسه يقف مع الواجب في تصحيح الخطأ الذي أشار إليه منصور، وأشار إليه ضيوف الجنادرية المطعونون في هويتهم وثقافتهم،

www.mtenback.com

فكتب الدكتور عبدالله الغذامي مقالا يشي بالتبرير لما حدث من تحول في أهداف المهرجان وغاياته، ولكنه يقرر حقيقة الامتعاض العربي والسؤال الغامض عن مصير لغة القرآن وثقافة العرب فيقول :«أخذت الجنادرية في الفترة الأخيرة تثير أسئلة مختلفة عن الأسئلة والاهتمامات السابقة ذلك هو سؤال العامية والفصحى، وليس السؤال محصوراً في وسطنا المحلي ولكن السؤال هو سؤال عربي شامل، ولقد سمعت هذا السؤال في سوريا وفي مصر وفي المغرب ووجدت نفسي في مواجهة محرجة مع عرب كثيرين صاروا يسألون عن المملكة العربية السعودية وعن الجنادرية، ويتساءلون عن المملكة العربية السعودية وعن الجنادرية، ويتساءلون هل صرنا نحن في بلد الإسلام والعروبة ندعو ونتبنى العامية ونقف ضد الفصحى، لقد آذاني هذا السؤال وأحرجني أن يصل الأمر بأحد أن يفكر أننا دعاة للعامية ومروّجون لها[1]».

هذا السؤال عن المملكة العربية السعودية وهذا الاتهام لها ظلم جائر سببه سوء التقدير من أشخاص قليلين ومن اجتهاد خاطىء أضاف إلينا تهمة نحن بريئون منها، وهو قول ترد عليه مواقفنا من الفصحى ومن الإسلام.

---

(١) عبدالله الغذامي، الجنادرية والنجوم، جريدة الرياض، العدد ١٠٩٠٩ في ١٤١٩/١/١١هـ. ١٩٩٨/٥/٧م.

www.mtenback.com

سؤال عربي عمّا يحدث في الجنادرية واتهام عربي لما يحدث في الجنادرية، لماذا هذا السؤال ولماذا هذا الاتهام؟ إنه الخطأ في التقدير والاجتهاد البعيد عن تحسس مواطن الإثارة، وقد كنَّا في غنى عن هذه التهمة، لكن الناس معذورون لأن لهم الظاهر، والظاهر هو ماتحدثت عنه في هذه اللقطات السريعة لما أفرزته الجنادرية من سلوك عبثي.

وفي خضم هذا المنحى الإقليمي اللغوي كانت الجنادرية ومايقدم فيها كل عام موضع نظر وتساؤل، بدأ محليا عند أول مهرجان أقيم باسم الجنادرية، وأصبح عربيا حين أدرك المثقفون العرب الذين تستضيفهم الجنادرية كل عام أن دول الخليج كوَّنت توجهها العامي الذي سيغرقها في عزلة ثقافية وفكرية بدائية سطحية غير متطلعة للمستقبل، ولا مستجيبة للحاضر المؤثر في الحياة والسلوك البشري. ودول الخليج بميلها غير الواعي إلى الثقافة الشفاهية العامية تخاطر مخاطرة كبيرة قد لا يدرك الذين يسعون هذا السعي عواقب مايقدمون عليه وما يعجبون به.

وهذا البوح الذي مرَّ معنا بعضه هو ماكان يتردد في السابق حين تجرد لنقد منهج الجنادرية كل الذين يهمهم مستقبل الثقافة العربية، ومستقبل الخليج وثقافته الفصحى، وكل الذين يتابعون الحس الثقافي الوحدوي الجامع للعرب في كل مكان وعلى كل أرض وهم يحملون احتراما وتقديرا للغتهم الخالدة ووعاء ثقافتهم الأصيلة.

www.mtenback.com

إن التلقائية التي نمنحها مناهج الثقافة الموجهة ونعيرها اللغة التي هي هوية الأمة وشخصيتها لا يمكن أن تصمد أمام التوجه الكوني المشترك للأمم والشعوب الواعية المتحضرة التي بدأت تدفع بثقافتها القوية وبلغاتها الحية إلى كل فراغ تجده شاغرًا على هذه الكرة الأرضية البسيطة، وتضع بذور الامتصاص للثقافات المفرغة من قيمها التي تحميها من الغزو والاستلاب الحضاري والثقافي والفكري، أو تلك الثقافات الضعيفة المنحازة عن جذورها وأصالتها، أو التي يزهد أهلها فيها. ولا أظن أحداً يشك في أهمية اللغة الموحدة ووظيفتها التي تقوم عليها علائق ووشائج تؤثر في السلوك البشري والتفكير الفردي والجماعي. ولا يشك أحد في واقع الحال الذي عليه العرب اليوم حين وضعتهم الأقدار في مواجهة غير متكافئة مع أمم تقود العولمة الاقتصادية والعسكرية والسياسية والثقافية، وتتجه بها إلى كل بلاد العالم الثالث القابل للاستلاب، وهي مصممة على اختراق الحواجز وأهمها حواجز الثقافة المحلية للشعوب، وأشدّها توجه نحو العرب حين تقع المنطقة العربية وسطا بين الشرق البعيد والغرب الذي يتقدم بسرعة رهيبة نحو المشرق كله، ويتجه بثقله إلى تحقيق مصالحه في الوطن العربي خاصة والعالم الثالث عامة، وهو يحتال بقدرة فائقة لأغراضه، ويتوسل بكل الوسائل الممكنة لتذليل العقبات في سبيل مدّه المتقدم إلى مواطن الضعف واللين حتى ينفذ منها بيسر وسهولة.

www.mtenback.com

واللغة والثقافة الأصيلة الموحدة هي أقوى معوق لتقدم العولمة الأجنبية وهي، أي العولمة، بشقها الثقافي تدرك قدرة الثقافات العريقة على الصمود والتحدي، ولا سيما ثقافات الشعوب الواقعة تحت ظل العولمة الجديدة، لذا اتجهت قبل الاصطدام بها إلى البحث عن تمييعها، وتليين قسوتها، وصمودها، ولم تجد أقرب وأهون من توجيه العامة وأمثال العامة إلى الثقافات البدائية واللهجات العامية المحلية، لأن الانشغال بها سيلهي الناس عن أهداف العولمة وأغراضها المطلوبة لتقدمها، وقد حدث الشاهد على مانقول من التاريخ العربي القريب والغربي أيضاً فعندما أراد الغرب استعمار البلاد العربية في أول القرن الحالي، كان الحديث عن العامية في مصر وفي لبنان وفي المغرب العربي هو الشاغل للمستعمِرين والمستعمَرين على حد سواء.

وإذا كانت أركان العولمة اليوم هي في الجانب الاقتصادي والعسكري والثقافي فإن أقوى هذه الأسلحة الثلاثة وأخفاها أثراً في التسلل إلى العقول والشعوب العامية والبدائية وأشدها خلخلة لكيانات الأمة هي الثقافة حيث تسبق المرحلتين الأوليين وتأتي تمهيداً لهما ليكون الاستعداد تاما والاستقبال سهلا والإغراء ممكنا.

إن الجنادرية تستطيع المحافظة على الشعر النبطي والعامي في نمطيته المعروفة، وفي حلقات السمر والمجالس العامة ليكون حديث مشافهة

www.mtenback.com

ومجالسة وهي الطبيعة المقبولة للمحلية اللغوية واللهجة المتعددة والمتغيرة. وتستطيع أن تحافظ على ثقافتنا العربية الفصحى مدركة لشمولها وسعة التعامل بها واختيار البارزين من شعرائها، وكتابها لتكون الفصحى لغة العرب عامة ولغة التراث العربي الخالد، ولغة الإرث المشترك للأمة العربية في مشارق الأرض ومغاربها، بل ولغة الخطاب العربي المقبول، والعنوان البارز الذي نرفعه على قمة العطاء الفكري المتميز بلساننا الخالد. وعسى أن تدرك الجنادرية أنها تقوم على أرض العرب ومهد الفصحى ومهبط الإسلام، وأننا ورثة هذه القيم المحافظون عليها والمسؤولون عنها، ولا خيار لنا إلا الالتزام بالثوابت والأسس الثقافية المشتركة التي لن يساوم عليها أحد، ولن يضعف الإيمان بها أمام أي ضغط شعبي أو عامي أو ظرفي، سنعبره بسلام بإذن الله، ونحن متمسكون بالإرث العربي الإسلامي وبالشخصية المتميزة الحية. إن أبناء هذا الوطن يطالبون الجنادرية أن تصحح مسارها وتعود إلى ثقافتنا العربية الإسلامية، وأن تحترم الإرث الضخم الذي خلفه أسلافنا العرب الأولون بلسانها الفصيح المبين، وأن تراعي قيمها الخالدة، وأن تدرك أن الظرف الذي تمر به الأمة العربية في حاضرها ظرف استثنائي يحتاج إلى وضع أولويات مدروسة متأنية من قبل كل الناس، ولا سيما من توكل إليهم أمور الثقافة الموجهة ومسؤولياتها، ومن

www.mtenback.com

يشكلون شخصيتها العربية والإسلامية وهويتها القومية والوطنية. لا نريد للجنادرية القادمة أن تنحني لرغبات عاطفية آنية وقتية تحرجنا مع العرب وتحرجنا مع أنفسنا، أوتخرجنا عمّا عهدناه من تماسك في رؤيتنا الثقافية واستمراريتها الواعية لأهداف الثقافة ومسؤولياتها.[1]

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

(١) مرزوق بن تنباك، بين الجنادرية رقم «١» والجنادرية رقم «١٣»، جريدة «الرياض»، العدد ١٠٩٣٧ في ١٤١٩/٢/١٠هـ - ١٩٩٨/٦/٤م.

www.mtenback.com

حصار الثقافة الفصيحة

وإذا كانت الجنادرية قد غلب عليها الميل العامي وأصبحت العامية لغة التجمع الكبير والحشد الجماهيري الذي ينتظم كل عام في الجزيرة، ويرتاده الناس من داخل جزيرة العرب ومن خارجها، فإن الصحافة قد نحت منحى جديداً في تعاملها مع الفصحى، وضربت حصاراً ثقافياً عليها، وأحكمت المنافذ التي تنفذ منها الفصحى، وحولت الاهتمام إلى العامية ودعت الكتاب -والشباب منهم خاصة- إليها في إشارة ذكية لإهمال الفصحى، ولم يخف هذا الميل الذي تمارسه الصحافة الخليجية منذ عشرين عاما[1] إلا أن التصريح بهجران الفصحى والطلب من شداة الأدب أن يتجهوا إلى العامية كان مرحلة غير سهلة التصور ولا مقبولة الطرح، وقد كانت الممارسة الفعلية هي تشجيع العامية في كل وسائل الإعلام المقروء والمسموع والمرئي، إلا أن الذي لا يمكن تصوره هو أن تغلق الصحافة الطريق في وجه الفصحى وأن يطلب من الناس التحول إلى العامية حتى تنشر آراؤهم، وسأسوق الدليل من الصحافة نفسها وبقلم الأستاذ حمد القاضي الأديب المعروف ورئيس تحرير المجلة العربية حيث بين مراحل التقدم الذي قطعته العامية في حصرها

(١) انظر كتابنا: الفصحى ونظرية الفكر العامي.

www.mtenback.com

للفصحى لغة وثقافة وفكراً وسأنقل النص كما جاء بعنوان «يا رؤساء التحرير»

«أناشدكم الله ببقية كرامتنا. جاءني صوته الشاب يفيض حسرة.. قال لي: أنا شاعر شاب طرقت أبواب أكثر من صحيفة ومجلة لأبعث إليهم إنتاجي، ولكن عندما أبعث إليهم أجد - مع الأسف - عدم الاهتمام بحجة ضيق المساحة المخصصة لنشر القصائد التي تكتب بالفصحى، وأضاف الشاب: آلمني عندما نصحني أكثر من رئيس تحرير ومحرر أن أبعث إليهم بقصائد نبطية من أجل سرعة نشرها لوجود مساحة كبيرة لنشر الشعر النبطي على شكل صفحات خاصة، وملاحق أسبوعية وختم هذا الشاب حديثه الهاتفي معي راجيا وقائلا: هل لي مجال في مجلتكم لنشر شعري الفصيح، صمتٌ، وصَمَتَ في لحظة ألم جمعتنا.

قلت لهذا الشاب بعد أن رحبت بإنتاجه: إن المجلة العربية آلت على نفسها ألا تنشر إلا الفصيح الذي أصبح بكل أسى - لا بواكي له أو عليه - أما النبطي فالمجلة لا تنشره وحسبنا عشرات المجلات الشعبية والصفحات والملاحق النبطية اليومية التي أصبحت بعدد الداخلين إلى عالم الشعر وهم أبعد مايكونون عنه. انتهى حديثي مع هذا الشاعر الشاب وقبلها كنت قرأت في صحيفة يومية موضوعاً وضع محرره هذا

www.mtenback.com

العنوان الصارخ معلقا على إحدى أمسيات الشعر النبطي بالجنادرية «الشعر الشعبي يحكم سيطرته، والفصيح «لم ينجح أحد» حسبنا الله، لا أدري من أين استقى هذا العنوان فهو بعيد عن الصواب والحق»(١).

هذا النص الفاضح وأمثاله كثير، هو ما كان يخفي كثيراً من التعليلات الواهية عن انتشار العامية وإقبال الناس عليها ونفورهم من الفصحى، فالأمر أصبح حصاراً مضروباً على لغة العرب وعلى ثقافتهم وهو حصار سيجعل العامية هي الواجهة الثقافية إذا كانت الصحافة ترفض نشر الفصيح وتسدي النصائح للشباب بالابتعاد عن الفصحى، والسقوط إلى مهابط العامية، وتعدهم على ذلك التشجيع والنشر لما يطرحون بلغتهم العامية، وهو أمر بالغ الخطورة ليس على اللسان العربي الفصيح، ولكن على نمط التفكير الذي يفكر به هؤلاء، وطبيعة الممارسة التي يمارسونها على الشباب وضرب الإغراءات الشديدة للذين ينحرفون عن الجادة الصحيحة إلى بنيات الطريق، وسنكمل مع الكاتب جزءا من مقالته الحزينة حين يجادل بالتي هي أحسن عن فكر أمته وعن لغته ووجوده فيضع الأمر في موضعه فيقول مزيلا اللبس الذي قد يظنه بعض من لا علم له بطبيعة الأشياء:«إنني لست ضد الشعر النبطي فهو يمثل غنائياتنا، واستراحة سمرنا وأنا ممن يتغنون به ويعشقون سماعه، لكنني ضد

(١) حمد القاضي، يا رؤساء التحرير، المجلة العربية العدد ٢٥٢، محرم ١٤١٩ هـ مايو ١٩٩٨م.

www.mtenback.com

الاحتفاء الكبير به إلى درجة مزاحمة الفصيح ومنازعة عاميته للغة الضاد على مكانتها، وعلى عقول الناشئة واهتمامهم، إن الاحتفاء بالنبطي يجب أن يظل بحدوده بحيث لا نجعل منه الأنموذج أمام الناشئة والشباب.

إننا بذلك نهدم لغتنا ونصادر ثقافتنا بالفصحى، ونعمل ضد رسالة مدارسنا التي تعمل على تكريس وتعليم لغة الضاد.. وإلا كيف نحارب الأمية كما قال أحد مناصري الضاد، د. حسن الهويمل ونحن نرسخ ونتابع ونعطي كل الاهتمام للشعر النبطي العامي. ثم أخيرا. لو أننا أعطينا النبطي اهتماما أوفر من الاهتمام الذي يجب أن يبقى في إطاره فإننا من حيث لا ندري نرسخ شتاتنا العربي ونلغي تراثنا واجتماعاتنا، بل إننا إذا ما استخدمنا العامية في كتاباتنا وحديثنا فلن يفهم أبناء بلد عربي حديث أخوته في البلد العربي الآخر، بل لا يفهم أبناء البلد الواحد لهجة أبناء مناطقهم الأخرى.

إنني في الختام أناشد زملائي رؤساء التحرير ورؤساء الأقسام الثقافية بالصحف والمجلات، وباسم كل غيور على لغتنا، وباسم كل شاب أمثال ذلك الشاب الذي أشرت إلى محادثته الهاتفية المحبطة في بداية المقال: أن يعطوا الاهتمام الأكبر لنشر الشعر بالفصحى، ولكل مايكتب فيها من شعر وأدب وحوار ومقالة. إنها أمانة في أعناقهم تجاه هذه اللغة الجميلة لغة القرآن التي استوعبت مفرداتها أفراحنا وآلامنا وسطرت

www.mtenback.com

كلماتها أمجادنا، وطرز شعرها ضفائر حضارتنا. إن هذه اللغة كما سبق أن قلت بقية كرامتنا، وإذا أضعناها فماذا يبقى لنا بعد أن ضاع منا بكل أسى كل شيء، كل شيء، أرضاً وكرامة وحضارة» (١).

لم يكن لنا بد من النظر إلى جدلية اللغة والفلسفة اللغوية بغض النظر عن موقفنا من الفصحى والعامية، نريد أن نتجاوز قليلا هذه الحيثية ونريد أن نتجاوز الموقف الآيديولوجي إذا كانت اللغة العامية أو المحلية والقطرية تحتمل المواقف الأيدولوجية وتحتمل الجدلية التاريخية وتحتمل الحياة والموت كأي كائن حي، كما نقبل الجدل بأن اللغة نشاط إنساني شامل للحياة بكل مضامينها وأبعادها، والنشاط الإنساني يقبل التعدد، ويقبل الجدل في قضاياه كلها، وإذا كانت الظواهر اللغوية من أهم مسلمات الجدل الذي يعطي الحق كل الحق للمرء أن يتعامل مع ظواهر اللغة بحرية تامة وبموضوعية مجردة ولا يتخذ موقفا يختل فيه ميزان الموضوعية التي يطلبها الباحثون في النشاط البشري على وجه الأرض، واللغة هي أهم نشاط يمارسه الناس كافة ويشتركون فيه. وكل من يجادل عن العامية وعن حق وجودها يتخذ من الدراسات اللغوية والآنثربولوجية الغربية شاهدا يعزز به الموقف الذي يدافع عنه والرأي الذي يرتئيه ولا يميز بين مراحل التطور اللغوي، ومايقبل منه وما يرفض.

(١)حمد القاضي، يا رؤساء التحرير، المجلة العربية العدد ٢٥٢، محرم ١٤١٩ هـ مايو ١٩٩٨م.

www.mtenback.com

العولمة الثقافية

العولمة:

لا تكاد تفتح صفحة في جريدة سيارة أو مجلة تصدر في الوطن العربي اليوم كما لا تجد خبراً عن ندوة من الندوات مهما كان موضوعها اقتصادياً أو سياسياً أو عسكريا أو ثقافياً، إلا وتسمع جلجلة العولمة والحديث عنها، وكيف أن العولمة قادمة والعولمة آتية، والعولمة لا محيص عنها، والعولمة قدر الشعوب، والأمم في القرن الذي ستطل سنواته الأولى بعد عام. ولا تكاد تسأل أحداً يغرق في الحديث عن العولمة وأهدافها ومضامينها أو التنفير منها إلا وتجبهك حقيقة جهله بأسس العولمة وحقيقتها التي يتحدث عنها. فأكثر المتحدثين عن العولمة والكتاب الذين نشروا حولها والمنتدين الذين يبشرون بها، يجهلون مدلول العولمة التي تحتل حيزاً كبيراً من تفكيرهم، وهم لا يتورعون من الاعتراف بأنهم جاهلون بها، وأن معناها غامض شديد الغموض وأهدافها ومضامينها أشد غموضًا وانغلاقاً عليهم، وفي ضوء هذه الحقيقة التي لا ينكرها أحد من الناس، حقيقة جهل كنه العولمة حتى لدى الألسن التي تلوكها وتتحدث عنها في الكتب والمقالات التي تنشر

www.mtenback.com

والندوات التي تقام لها، يثور سؤال في غاية الأهمية هو: من يملك تفسير العولمة ومن يستطيع حلّ لغزها المحيّر؟ ومن سيستفيد من العولمة لغة وثقافة؟ وهل الغموض الذي تبطن به هو طبيعة في العولمة ذاتها أو هو إخفاء لها ومحاولة لإعطائها دلالة مبهمة، ومعنى فضفاضاً، يقبل الاحتمالات الكثيرة والممكنة؟ ويقبل حتى الاجتهاد في تفسيرها؟!.

وأمام الواقع الجديد الذي خلقت العولمة في أجوائه فإنه غير ممكن البحث عن دلالتها في معاجم اللغة لأن معاجم اللغة، ستحيل على معنى جامد لا دلالة له فلا يجد هؤلاء تعريفًا صحيحًا للعولمة ومدلولاً صحيحًا لأغراضها. وفي أمر مثل هذا فإن الاجتهاد في التفسير هو الذي يصلح اللجوء إليه، آخذين في الاعتبار تجربة التاريخ الحديث الذي نعرفه عن أرباب العولمة وفلاسفتها ومصدّريها، فما عهدناه فيهم، ومابقي بذاكرتنا التاريخية الحديثة هو تسمية الأشياء بغير أسمائها، وتغليفها بغير غلافها، وتقريبها بالأسلوب الذي يغري بالاهتمام بها والانجذاب إليها، وقدرتهم على استعمال أدبيات اللغة، فقد كانوا في الماضي يسمون احتلال الأرض واستعباد البشر إعماراً، ويسمون أنفسهم مستعمرين وهو اسم جميل لعمل قبيح، وكانوا يسمون القهر بالقوة لسكان الأرض الأصليين انتداباً، وهي لغة غامضة مبهمة تمامًا مثل غموض معنى العولمة. وجانبها البين الذي نعرفه هو أن العولمة استلاب جديد لثقافات الأمم غير الغربية،

www.mtenback.com

بل خطر حتى على ثقافات الغرب غير الناطقة باللغة الإنجليزية، وقد بدأت الدول تخشى على ثقافاتها، مما ستجلبه العولمة معها من غطاء عالمي، وعاؤه اللغة الانجليزية. وهذه فرنسا وهي قطب مشارك في مسيرة العولمة الغربية بدأت تبحث عن مصدات ودفاعات تحافظ على ثقافتها من الذوبان بثقافة العولمة تصلح أن تكون مثلاً لما نحن بصدده، فقد جمعت أمرها قبل أشهر قلائل وأعلنت اتحادها الفرانكفوني واختارت لهذا الاتحاد رجلاً مجرباً معروفاً مخلصاً للثقافة الفرنسية، وهو بطرس غالي الأمين العام السابق للأمم المتحدة، وأقامت مؤتمرها الذي نصبت فيه غاليًا في شرق آسيا. هذا الاتحاد سيجمع الدول ذات الثقافة الفرنسية أو المتأثرة بالفرانكفونية كما يسمونها، ورغم أن فرنسا من أقوى الدول تأثيراً في الوقت الحاضر إلا أنها تعرف أنه لن يكون نصيبها الثقافي من العولمة مساوياً لنصيب الناطقين بالإنجليزية. واللغة الإنجليزية كانت محظوظة حتى عندما غربت شمس الإمبراطورية البريطانية عن الكرة الأرضية في أواخر هذا القرن، ظهرت شمس الأخطبوط الأمريكي مستعمل اللغة ذاتها وناشرها في الآفاق، وأمام هذا الحال بدأ العالم كله يحصن دفاعاته حول ثقافاته المحلية ويتمسك بشخصيته الثقافية، ومن بين ذلك فرنسا. إن العالم الذي لا ينتمي إلى ثقافة الغرب وحضارته يخاطر أشدَّ المخاطرة عندما يقبل لغة الغرب، ولا سيما عندما تكون لغته

www.mtenback.com

موجهة إلى ثقافة العالم الآخر غير الغربي وهو، أي الغرب، يقيم عليها كيفيات التعامل مع الآخرين.

وقد بدأت فرنسا تستشعر حساسية الموقف التاريخي في أوروبا وتذكر موقف اللغة الإنجليزية، والحروب الطاحنة بينها وبين بريطانيا يوم كانت أمريكا مستعمرة بريطانية. وذاكرة الشعوب قوية الاسترجاع عند الخطر، فحروب أوروبا لا زالت حية في ذاكرة الفرنسيين وغيرهم، من الغربيين، ولذا وجدنا فرنسا تنضم إلى العالم المغزو كما يرى ذلك أحد الكتّاب المعاصرين إذ يقول:«مازال مصطلح العولمة، منذ إطلاقه يحدث تفاعلاته، ويترك أصداءه على ساحة الفكر في العالم العربي، حيث العولمة هي موضع للرد والنقض أو للطعن واللعن، من قبل جماعات المثقفين الذين نصبوا أنفسهم حماة للهوية والأمة والوطن من أخطار العولمة وغزو الأمركة.

ويبدو أن الفرنسيين باتوا يشبهوننا بعض الشيء في موقفهم من العولمة، لقد ثارت ثائرتهم أثناء المحادثات حول اتفاقيات «الجات»، يومها كان الفرنسيون يريدون استبعاد النتاج الفني والسينمائي من بنود الاتفاقية. أما الأمريكيون فكانوا على العكس من ذلك، الأمر الذي جعل مندوب الولايات المتحدة في المفاوضات يقول للفرنسيين: اتركوا لنا صناعة السينما فأنتم لا تحسنون سوى صناعة الأجبان، فكان ذلك مثار غضب السياسيين والمثقفين في فرنسا.

www.mtenback.com

حتى« ريجيس دوبريه» الذي طلق النضال وانصرف إلى الكتابة والبحث خرج من عزلته لكي يتحدث عن غزو النمط الأمريكي للحياة الفرنسية، يومها قلتُ لأحد الفرنسيين الذين ألتقي بهم: كيف تتحدثون عن الغزو الثقافي وأنتم غزوتم العالم بلغتكم وثقافتكم.

أنطلق من هذا الحديث عن الغزو، لأقول : التعامل مع العولمة بعقلية نضالية غير مجد، فالعولمة ليست مدرسة أيدولوجية بقدر ماهي حدث يجري على الأرض، يتغير معه مشهد العالم، بقدر ماتتغير خارطة القوى والسلطات والصراعات فضلا عن خارطة المفاهيم والقيم والحقوق فالأجدى إذن أن نحاول فهم مايحدث لكي نشارك في صناعة الحدث بصورة منتجة وثمينة.

ولا شك أنه قد طرأت تغيرات على مفاهيم الأمة والدولة والوطن بل يمكن القول: إننا نكاد ندخل في عصر مابعد الدولة، وهو عصر يذكرنا بما كان سائداً قبل الدولة، إذ إنه مع العولمة أخذت تسيطر قبائل من نوع حديث على مسرح الأمم هي الشركات المتعددة الجنسيات التي باتت أقوى من الدول والأوطان والأشخاص، مع فارق أن القبائل القديمة ذات الاقتصاد الرعوي كانت تحيا حياتها على سبيل الانتقال والترحال. أما القبائل الحديثة ذات الاقتصاد الناعم فإنها تعمل عبر شبكات الإلكترون فتنقل منتجاتها الرمزية من الصور والرسائل والأرقام

www.mtenback.com

والعلامات بسرعة الضوء، غير عائبة بالحدود بين القارات والأوطان والمجتمعات، إننا إزاء تجمعات وطوائف جديدة، هويتها السوق العالمية، ووطنها حيث تصل منتجاتها الأثيرية أي الأرض وفضاؤها السبراني أو مداها الكوكبي.

بهذا المعنى تختلف الحدود بين الوطني والعالمي أو بين المحلي والكوني، تزول الفروق بين الداخل والخارج على مالاحظ ذلك الرئيس الأمريكي بيل كلينتون بقوله : لأول مرة لم يعد هناك فرق بين السياسة الداخلية والسياسة الخارجية، إنها نهاية الجغرافيا، وليس التاريخ على مايقول بول فيريليو، وذلك حيث تتداخل الأوطان ولا يعود هناك داخل وطني يخص أبناء وطن معين ولا يخص سواهم، إنه الوطن السبراني آخذاً بالتشكل مع العصر الألكتروني، ولامراء فإن هناك أناساً في العالم مازالوا يحاربون من أجل بضعة أمتار مربعة، كما هو شأن الإسرائيليين على أرض فلسطين، وهذه عقلية ماقبل التاريخ في زمن نهاية الجغرافيا، وهي عقلية لا تنتج سوى الكوارث والخراب والويلات، وهذا شأن العقل الأيدولوجي المغلق على أصوله والمسجون في أقبية ذاكرته الألفية الموتورة: لا ينتج سوى الإرهاب والتصفية أو الاستئصال، كما نشهد التجارب في غير مكان، لم يعد بوسع الدولة الوطنية أو القومية أن تلعب نفس الدور الذي كانت تلعبه من قبل، وإلا جرى تهميشها أو تجاوزها

www.mtenback.com

من قبل القوى العالمية الفاعلة والعاملة على عولمة الأرض والأوطان عبر توحيد أسواق الأموال ووسائط الاتصال، بعبارة أخرى: على كل دولة أن تعيد ابتكار نفسها وأن تجدد أطرها وأساليبها ومفاهيمها لمواجهة تحديات العولمة الخارقة للحدود بين الدول بحيث تكون في سياستها وقراراتها، جماع كل النشاطات المجتمعية ومحصلة كل القطاعات الإنتاجية وهذا شأن الدولة الفاعلة اليوم، إنها تنسخ علاقات منتجة مع كل مايحدث ويستجد من المجالات والفاعليات والتشكلات.

بهذا المعنى لم يعد قادة الدول والأوطان زعماء أحلاف ومعسكرات بقدر ما أصبحوا زعماء أسواق وكتل اقتصادية أو مجتمعات إنتاجية ولا يغضبن حماة القيم والخائفون على الهوية، فالحضارة العربية كانت حضارة احتل فيها السوق مركزًا ممتازًا إذ كان الفرد يخرج من المسجد بعد أدائه الصلاة لكي ينتشر في الأرض يمارس تجارته ويوسع أسواقه ومبادلاته فكان ذلك سببًا رئيسيًا لازدهار تلك الحضارة التي تصدرت الواجهة العالمية لقرون طوال، بقدر ماكانت حضارة تعارف، أي بقدر ماخلقت إمكانات غنية وجديدة للتبادل والتواصل بين البشر»[1].

وإذا كانت هذه الكلمة الطويلة التي نقلناها بالكامل تبشر بالعوّلمة وترى أنها قدر لا مهرب منه في المستقبل ولابد من قبولها شاء العالم أم

(١) علي حرب، عولمة الأوطان، جريدة عكاظ العدد ١١٤٦٥ ١٤١٨/٩/٨ هـ ١٩٩٨/١/٦م.

www.mtenback.com

أبى، وأن البحث يجب أن يكون عن كيفية المشاركة الفاعلة وليس الانضواء الاضطراري أوالسلبي، وهي تقرُّ التحول وتبحث له عن مبرر من التاريخ العربي في الماضي البعيد يوم كان العرب يقودون التغيير الثقافي والاجتماعي، ويشاركون في الحياة السياسية والعسكرية، فإن وضع رأي آخر لرجل عاش الثقافة الفرنسية التي يتحدث عنها الكاتب وتكلم اللغة ذاتها التي أشار إليها وهو غارق في الهمِّ الثقافي اللغوي ومتخصص فيه، يجعلنا نقبل المقارنة منه أو الاستشهاد برأيه حين يحدّ الثقافة الحادثة وعولمتها في حاضرنا العربي مع تجربة اللغة في وظيفة الغزو والاستلاب الثقافي بقوله: «هي ذي الكونية الثقافية. ولكن النظام الجديد في عالميته لابد أن يتضمن مشروعًا لغويًا، إن اللغة هي الحامل الأكبر للمنتج الثقافي وهي الجسر الأعظم للمسوِّق الإعلامي وهي السيف الأمضى للاختراق النفسي، وعليها مدار كل تسلل أيدولوجي، وكل اندساس حضاري.

إن المخططين للأممية والعولمة والكونية ليعلمون يقينًا بأن اللغة هي أم المرجعيات في تشييد المعمار الحضاري، وفي بناء صرحه الثقافي وليس من عاقل يسلم باكتساء النظام العالمي الجديد ثوب الحرب الاقتصادية والثقافية إلا وهو يسلم تسليمًا طوعياً، بأن ذلك النظام على تعدد أربابه، حامل لبذور الصراع اللغوي المحتدم: كل على شاكلته وكل بحسب طاقته في الجذب أو بحسب أسلحته في خلخلة النفوس واحتلال الأذهان.

www.mtenback.com

إن الكونية الثقافية الغازية لهي الاستعمار الجديد بلا أدنى شك ولا ارتياب، وللاستعمار نواميسه، وله كذلك منظومة تديرها قوانين ثابتة، ولابد أن يجنح الاستعمار الجديد إلى اقتفاء أثر الثوابت فيعيد إنتاج أنموذجه التاريخي الأول ولا سيما في الربط الآلي بين التسلط السياسي والتلسلط اللغوي، بل لابد هنا أن تصدق المقولة ولو مرَّة واحدة: إنَّ التاريخ يعيد نفسه بنفسه»[1]. لا أظن أحداً يشك في إدراك الدكتور عبدالسلام المسدي صاحب النص السابق لأهمية اللغة ووظيفتها الأيدولوجية ومعرفته بأركان اللعبة الثقافية، وواقع العرب والمسلمين الذين تضعهم الأقدار في مواجهة غير متكافئة مع أمم تقود العولمة الاقتصادية والثقافية بوعي واضح الأهداف لما تريد وتتجه بثقلها العالمي لتحقيق مصالحها في الوطن العربي خاصة وفي العالم الثالث عامة، وهي تحتال بقدرة فائقة لأغراضها وتتوسل بكل الوسائل المختلفة لتذليل العقبات في سبيل مدِّها المتقدم إلى العالم الضعيف، متخذة الطرح المغلف بسياج رقيق من المصالح والفوائد المشتركة أو التي تبدو كذلك عند النظر السريع، واللغة هي الوسيلة التي تحرك المشروع الثقافي، والحضاري المعاصر، والعولمة بشقها الثقافي هي التي تواجه التحدي من ثقافات الأمم والشعوب الواقعة تحت ظل العولمة الجديدة، وإذا كانت أركان العولمة هي

(١) الدكتور عبدالسلام المسدي، اللغة ومخاطر العولمة، الرياض ١٤١٨/١٢/٢٧ هـ.

www.mtenback.com

الاقتصادي والعسكري والثقافي فإن أقوى هذه الأركان الثلاثة وأخفاها أثرا في التسلل إلى عقول الشعوب المغزوة، وأقدرها على خلخلة كيانات الأمة هي الثقافة حيث تسبق المرحلتين الأوليين، وتأتي تمهيداً لهما، ليكون الاستعداد تامًا والاستقبال سهلاً والإغراء ممكنًا كما أشار الأستاذ عابد خزندار بقوله :«إن العولمة تعني في أهم ماتعنيه سيادة لغة واحدة على العالم كله. أي أننا لا نشهد هنا نهاية التاريخ كما يقول فوكوياما بل نهاية الفكر، على أنه قبل نهاية الفكر لابد أن نشهد حربًا عالمية ضروسا في القرن القادم، بين اللغة الإنجليزية واللغات الأخرى. لأن اللغة الإنجليزية الألكترونية باعتبارها لغة اتصالات رقمية، ولغة عولمة اقتصادية تهيمن عليها الدولة العظمى الوحيدة ستقضي حين تقضي على اللغات الأخرى ستقضي أيضا على الثقافات الأخرى، وبالتالي على الهوية الوطنية والقومية وتحل الدولة السياسية محل الدولة القومية ولهذا فإن صراعنا للبقاء مرهون بمحافظتنا على الفصحى، والفصحى هي سبيلنا إلى الوحدة العربية، والهوية العربية الواحدة، إذ لا وجود لهوية واحدة في ظل لغات ولهجات متعددة، ومثل هذه الهوية الواحدة ضرورة بل مسألة بقاء أو فناء أمام هجمة اللغة الإنجليزية الإلكترونية العارمة.. فما أحرانا بعد كل ذلك أن نتشبث بالفصحى، ونعض عليها بالنواجذ» [1].

(١)عابد خزندار، قضية العامية والفصحى، جريدة «الرياض» ١٠٨٣٢ في ١٤١٨/١٠/٢٢هـ - ١٩٩٨/٢/١٩م.

www.mtenback.com

وقد نلمس في الطرح الإعلامي الغالب النفس العالمي للثقافة وللاقتصاد وحتى التقاليد والأعراف الاجتماعية؛ فإن التبشير بأن تكون واحدة أو متقاربة أشدّ التقارب بدا يلوح في الأفق الحديث عنه. والقبول به أصبح أمراً معقولا لدى قطاع كبير من المثقفين،وغيرهم من أصحاب النظرة السريعة. وما يترتب على ذلك من سؤال هو لماذا نخاف العولمة مادامت الفرص المتاحة والحياة الاجتماعية المقبلة في كل صورها ستكون واحدة لا اختلاف فيها، وأن الإنسان سينعم بمجتمع إنساني وبشري واحد تجمعه روابط البشرية والإنسانية؟! والإجابة لن تأتي على شيء مما سبق إلا إذا عرف المرء أن الصورة المطلوبة للعولمة لا تجمع الثقافات والأمم والشعوب في المعمورة وتنسق بينها وتخلق منها صوراً للوحة الحياة البشرية التي سترسم على الأرض للمستقبل وليس كل ثقافة في حاضر العولمة ستحتل مكانها الذي يناسبها في اللوحة العالمية القادمة، ولو كان الأمر كذلك لرضي الناس بأن يكونوا إخواناً متساوين ومشتركين في الحياة التي يعيشونها في كوكبهم الصغير. إن العولمة التي تنادي اليوم بالاتحاد ونفي الفوارق الثقافية والاقتصادية والسياسية والعسكرية، لا ترضى بالمشترك الثقافي، ولا الاقتصادي، ولا السياسي، ولكنها تختار نموذجها المفضل سواء أكان هذا النموذج عسكريا أو سياسيا أو اقتصاديا. والنموذج الذي تريده العولمة هو النموذج الغربي،

www.mtenback.com

النموذج القادم إلى العالم كله بصورة الرجل الأبيض، بثقافة الرجل الأبيض، وحضارته. إذن فالعولمة المطلوبة هي أن تنفي ذاتك إذا كنت غير غربي متميز على غيرك من سكان المعمورة وأن تختار ثقافة غيرك، وأن تلجأ إلى الثقافة القادمة المسماة عالمية، تختار منها ماتحتاج إليه لتحله محل ثقافتك التي لا تصلح للعولمة في رأي الرواد العالميين في الوقت الحاضر.

إن الدعوة إلى الانضواء في أطر العولمة هي دعوة الأقوياء، يستجيب لها الضعفاء أو يكرهون عليها، وهي دعوة مغلفة بغلاف شفاف جميل عندما تكون الدنيا قرية واحدة، والناس مجتمعًا واحدًا، والعولمة قدرًا أبديًا للجميع. لكن الغفلة عن قسمة الحظوظ في هذه القرية الواحدة، وإنكار الواقع الذي يعيش عليه أهل هذه القرية هي موضع السؤال. وهي محور الإجابة التي نبحث عنها ولكننا لا نجدها بسهولة، نجد أننا ننساق مع الثقافة الأقوى المؤثرة ونتجافى عن ثقافاتنا التقليدية والمحلية والعربية، متخذين الثقافة الطارئة نموذجاً نقيس عليه ونقارن به، وقد عالج كثير من المثقفين المعاصرين هذا الميل الغالب على التوجه في العالم العربي إلى الثقافة ذات الأبعاد المتكاملة، إذ ينص برهان غليون على تلك الروح فيقول: «تعتقد النخب الاجتماعية في البلدان النامية أن الثقافة الإيجابية هي تلك التي تشجع، أولاً الانطلاقة الاقتصادية

www.mtenback.com

وتساهم في جهود التنمية. من هنا توجيه الثقافة وجهة التعليم والإعداد المهني، لكن التنمية بما هي عملية متكاملة، لا تضع الثقافة في خدمة الاقتصاد فحسب بل تضعها أيضا في خدمة صيانة السلطة والدولة باسم ترسيخ الهوية القومية، لذلك تفقد الثقافة كتعددية لأشكال ووسائل التعبير والتبادل والاتصال على جميع مستويات الحياة الاجتماعية.. ويتم التماثل في الواقع، بينها وبين الأيدولوجيا، والشروع في إقامة سلطة قومية، ويصبح من الممكن، من جراء ذلك أن يعمل المسؤولون على تشجيع ثقافة «الإطارات» ثقافة من شأنها أن تسرع بنظرهم إلى استيعاب مكتسبات الحضارة العلمية والمادية، والتقدم السريع على طريق التنمية.. تصبح ثقافة التنمية الاقتصادية والسياسية نفسها والقائمة على تكوين نخبة مفترضة قادرة لوحدها على حمل ونقل رسالة النهضة واحداً من الأسباب الرئيسية للركود الاجتماعي والاقتصادي وذلك لسببين:

١ - التدمير الفعلي للهوية الثقافية السابقة عند أوسع الكتل الشعبية الموضوعة خارج دائرة الأفكار والمعلومات والمعارف، والمحكومة بالانعزال في ثقافة مفقرة ولا تملك أسباب تجددها.

٢ - تكريس القطيعة الاجتماعية بين هذه النخبة التي تسيطر من الآن فصاعداً على سياق إنتاج وتداول المعرفة من جهة وبين كتل ضعيفة

www.mtenback.com

لشخصية تابعة في فهمها لواقعها وظروفها وفهمها للدولة والطبقة الحاكمة»[1].

وتكريس القطيعة الثقافية مع المحلية والقومية هو محور الجدل القائم حول العولمة وماهيتها وصلتها بالثقافات غير الغربية ومدى القدرة التي ستواجه بها الثقافات غير الغربية العولمة القادمة بأبعادها التي تستدعي أطراف الاهتمام العالمي الجديد الاهتمام القادر المؤثر كما جاء في شرح رأي الدكتور عبدالسلام المسدي الذي واصل رحلته الثقافية في جريدة «الرياض» متحدثا عن الهمّ الثقافي الجديد، وقد سبق أن أشرنا إلى مقاطع من آرائه في هذه القضية حيث نهض بأكثر من جواب عما يجيش في صدور الكثيرين الذين يرددون حال الغزو الثقافي قابلين به أو رافضين له، إلا أن الكاتب يرى: «أن الحضارة الغربية تمثل خلاصة التطور الكوني المطلق بيد أن المجموعات الأخرى ماتزال بدائية تعيش طور التوحش والهمجية والقبلية وشتى أوجه الانحلال والجهل والفقر والبؤس والتخلف.

فهل يعيد التاريخ نفسه؟ لم لا فالوقائع تتغير، والأطراف تتبدل والمسوغات تتنوع ولكن الدمل التاريخي يتجدد وهذا هو الذي يمسك «بأعناقنا» إمساكا. إن أممية سياسية وعولمة اقتصادية لابد أنهما

(١)برهان غليون ـ الوعي الذاتي، ص ١٠٢ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية ١٩٩٢م.

www.mtenback.com

تستدعيان الكونية الثقافية استدعاء لا يهمل انتظاراً ولا يرجئ إنجازا. والذي يزيد الباحث الثقافي حيرة فيضاعف تشتته الذهني هو ضياع سلم المرجعيات العقلانية في مستوى المنهج والنظرية»[1].

إن مايتحقق ويحصل في عالمنا العربي وفي البعد الإسلامي أيضا هو ضياع سلم المرجعيات وتشتت الرؤية التي تواجه بها الثقافة العربية الإسلامية الثقافة الغربية، أو إن شئت فقل الثقافة العالمية التي يبشر بها العصر الجديد إذ إنها ثقافة تجاوزت إشكالية المرجعية وحلت معضلة النموذج والإطار الذي تختار مسارها الثقافي فيه، وطبقاً له قد أطّرت أسس العلاقة بين العامل الإيرادي والعامل الظني. انتهت الثقافة الغربية أو إن شئت تحديداً أكثر فقل الثقافة الناطقة بالإنجليزية من ردم الهوة السحيقة التي تكونت بفعل الزمن، وخلصت من التراكم الكمي الذي خلفته عصور الظلام في أوروبا، وعصور الانحطاط فيها. فلم يعد هناك إشكال في تحديد الأشياء وفي تعريف الأسماء. هناك مرحلة تاريخية مظلمة سوداء صنفتها الحضارة الغربية وخلصت منها وانتقلت إلى حضارة النور وحضارة الفكر والحياة. ولا يعني ذلك أن تاريخها الحديث لا يعرف الظلام والتخلف ،إنه يعيش حياة الواقع الذي يشرق

(١) عبدالسلام المسدي، البصيرة الثقافية الجديدة جريدة «الرياض»، العدد ١٠٩٥١ في ١٤١٩/٢/٢٤ هـ ١٩٩٨/٦/١٨م.

www.mtenback.com

فيه جانب يضيء على العالم وعلى نفسه، ويوجد فيه نقاط سوداء كالحة السواد، لكنه بسرعة يحيل هذا السواد في تاريخه الحديث إلى تاريخه الظلامي الماضي. تاريخه الحاضر يفرز الواقع ويتعامل بوعي إشراقي جذّاب، فما كان ظلاماً قاتماً أحاله في الحال إلى شكله ومثيله من التاريخ وما كان إشراقاً مضيئاً أضافه إلى حاضره المشرق، وتطلع به إلى المستقبل. بهذا التصنيف غلب الإشراق على الظلام، وطرد فجر هذه الأمة الغربية ظلامها، وانتشرت ثقافتها. وهي بهذا الوعي والتمييز تعامل الثقافات الأخرى، وتريدها أن تختفي في ظلها وتتبع الضوء الذي تشعه الحضارة الغربية، ولا غرو فهي مزهوة بهالتها وجاذبية العطاء المتميز فيها، وهي على بعض الحق حين تريد من العالم أن يتخذها مثالا، ويسير معها في ركب العولمة، أو بالأصح يسير في ظلها، يحمل من ثقافته مايمكن أن يضاف إلى نموذج الغرب الذي يسير عليه، ويتخلى عن كل نماذج التضاد والتعارض التي يكونها عامل الضدية.

والعولمة بفتوتها وشبابها المتجدد في هذا العصر تنظر بعين الوعي للثقافات القديمة نظرة تظهر فيها مسحة الإشفاق والرحمة لها من زمانها وشيخوختها، وتعرف عجز أهلها عن التجديد فيها، ولكنها أيضا قادرة على استقراء الحياة والواقع الذي يجعل أهل كل ثقافة يتمسكون بها ويحافظون عليها، وقد تظهر في مظهر الحياد التام في قضية اللغة،

www.mtenback.com

ومن هذا الإحساس انتقلت إلى لغة العولمة وليست لغة الدولة الغالبة ولا الثقافة الغالبة التي كان التبشير بها هو مفهوم العقود الماضية منذ أول القرن الذي نعيش فيه حتى الانفراج الذهني الذي أتى بالعولمة إلى شمولية تامة للثقافة وللاقتصاد وللسياسة واللغة، ولكل منفذ من منافذ الحياة. ولعل الإلمام بصورة مبسطة لأيدولوجيا العولمة هو مايجب أن نتوقف عنده بعض التوقف مع الدكتور محمد عابد الجابري حيث يرى مفهوم العولمة ومدلولها بشمولية أوسع قليلا مما تعيشه اللغة أو تعنيه الثقافة، يقول: «ليست العولمة نظاماً اقتصادياً وحسب بل لقد أصبحت، وربما نشأت منذ أول الأمر في ارتباط عضوي مع وسائل الاتصال الحديثة التي تنشر فكراً معينّل، لا بل ثقافة معينة أطلقنا عليها في عمل سابق ثقافة الاختراق، وبمناسبة ذكر الثقافة تجدر الإشارة إلى ظاهرة أخذت تنتشر في الأوساط التكنوقراطية عندنا وفي الأوساط الصحافية التي تنقل عنهم مصطلحاتهم وأفكارهم بوصفها تعبر عن أفكار جديدة حديثة، تسمعهم يقولون مثلا: هناك ثقافتان ثقافة الانفتاح والديمقراطية، وثقافة أخرى لا يجرؤون على وصفها بالوصف الذي يرضي ميولهم وتصورهم للأمور، وإنما يقتصرون على نسبتها إلى حقبة زمنية ماضية تصل إلى الستينات والخمسينات.

هذا النوع من الاستعمال لكلمة ثقافة ينطوي على فكر أيدولوجي

www.mtenback.com

يجب فضحه، فمن جهة يتعلق الأمر باستعمال كلمة في غير محلها، ومن جهة أخرى توظف هذه الكلمة مكان أخرى لم يعد ذكرها مرغوباً فيه، أعني بذلك الكلمة أيدولوجيا. فعلا إن من مظاهر العولمة ومن آلياتها على الصعيد الفكري إقصاء كلمات ومصطلحات تسمي الأشياء تسمية أخرى لا تتفق مع العولمة ومقاصدها. إن مصطلح أيدولوجيا على الرغم من كل أنواع اللبس المحيطة به، يؤدي وظيفة ليست في صالح العولمة، ذلك لأن العولمة تنطوي بل تتبنى وتنشر أيدولوجيا معينة من عناصرها الأساسية محاربة الذاكرة الوطنية والتاريخ والوعي بالتفاوت الطبقي والانتماء الوطني والقومي وبالتالي الوعي الأيدولوجي، وهذه كلها تتناقض مع العولمة وطموحاتها، فالذين يستعملون كلمة ثقافة في عبارات من نوع ثقافة الانفتاح أو ثقافة التعدد والاختلاف أو ثقافة التكيف يمارسون نوعا من الإقصاء الأيدولوجي لعبارات ومفاهيم مناقضة للأولى مثل الاستغلال والتحرر والوحدة والتنوع والتمسك بالثوابت، ولو أننا وضعنا كلمة أيدولوجيا مكان كلمة ثقافة في العبارات السابقة لانكشفت اللعبة انكشافا.

إن عبارات أيدولوجيا الانفتاح والاندماج، وأيدولوجيا التعدد والاختلاف، وأيدولوجيا التكيف عبارات تميل إلى فضاء فكري آخر يقع خارج الوطن وخارج التاريخ. والعولمة ليست شيئا غير ربط الناس

www.mtenback.com

اقتصاديا وسياسيا وثقافيا بشيء يقع خارج الوطن وخارج التاريخ في الخمسينات والستينات وماقبلها، وهي المرحلة التي تريد العولمة ودعاتها إقصاءها وإعدامها. كانت الثقافة ثقافتين: ثقافة استعمارية إمبريالية وثقافة وطنية تحررية، أما اليوم فالتصنيف الذي يريد تكريسه الواقعون تحت تأثير أيدولوجيا العولمة هو ذلك الذي يجعل الثقافة صنفين: ثقافة الانفتاح والتجديد، وثقافة الانكماش والجمود، ولو سموا الأشياء بأسمائها لقالوا: ثقافة التبعية والثقافة الوطنية، بعد هذا الاستطراد نعود فنقول: هناك من الباحثين من يعود بالعولمة كنظام اقتصادي وإعلامي وأيدولوجي إلى مبادرة تقدم بها بعض المنظرين في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٥م طرحوا فيها ثلاث قضايا جعلوا منها برنامج عمل يضمن للولايات المتحدة الهيمنة على العالم.

القضية الأولى تتعلق باستعمال السوق العالمية كأداة للإخلال بالتوازن في الدول القومية، في نظمها وبرامجها الخاصة بالحماية الاجتماعية.

القضية الثانية تخص الإعلام بوصفه القضية المركزية التي يجب الاهتمام بها لإحداث التغيير المطلوب على الصعيد المحلي والعالمي.

أما القضية الثالثة فتتعلق بالسوق كمجال للمنافسة.

www.mtenback.com

لقد ذهبوا في هذه المسألة مذهباً خصبا فقالوا: إن السوق يجب أن تصبح مجالا لاصطفاء الأنواع وتبين بصورة صريحة النظرية الدارونية التي تقول «إن البقاء للأصلح» في مجال البيولوجيا، داعين إلى اعتمادها في مجال الاقتصاد على مستوى عالمي.

يتعلق الأمر إذن بأيدولوجيا صريحة تقوم على ثلاث ركائز :

١ – شل الدولة الوطنية وبالتالي تفتيت العالم لتمكين شبكات الرأسمالية الجديدة والشركات العملاقة متعددة الجنسية من الهيمنة عليه والسيطرة على دواليبه.

٢ – توظيف الإعلام ووسائل الاتصال الحديثة في عملية الاختراق الثقافي واستعمار العقول وذلك بربط المثقفين «والتقنوقراطيين منهم بالخصوص بدائرة محدودة ينشدون إليها بصورة آلية: دائرة التسيير التي تصرف العقل عن أي شيء آخر يقع خارجه فتجعل منه العقل الأداة وهكذا تسود النفعية الجديدة التي قوامها ابتكار الأدوات النظرية الكفيلة بتخفيض التوترات وتطويق الصراعات واعتماد الحلول التقنية المعلوماتية.

٣ – التعامل مع العالم ومع الإنسان في كل مكان تعاملا لا إنسانيا، تعاملا يحكمه مبدأ البقاء للأصلح، والأصلح في هذا المجال هو الناجح

www.mtenback.com

في كسب الثروة والنفوذ وتحقيق الهيمنة، وفي إطار هذا المبدأ تبدو الخصوصية والمبادرة الحرة والمنافسة على حقيقتها، فأيدولوجيا للإقصاء والتهميش وتسريح العمال أخذًا بمبدأ كثير من الربح قليل من المأجورين» (١).

في مجمل هذا الاقتباس الطويل تأتي الثقافة الوطنية التي تحاول العولمة جذبها إلى مدارها، طلبا لإقصائها أوطلبا لضمها وإرغامها على العولمة الثقافية. وليست العبارة المخدرة والمبلغة بكافية أو دالة على المدى البعيد الذي يلحق بأسس التكوين الوطني الثقافي القادم. كل ثقافة ستجد نفسها في حاجة إلى الاحتياط والحذر كي لا تضر الثقافة ولا تهضم حقوق الضعيف الذي تُلقي قوة العولمة عليه بثقلها.

إن ثقافات الأمم والمجتمعات غير الغربية تقع اليوم في ظل ثقافة العولمة وفي مدارها الطويل وتحت ذراعها الممتدة إلى الآفاق، وفي كل الاتجاهات وهو مدار ساخن، يثير كثيراً من المشكلات المتوقعة، ويؤثر أكبر الأثر على مستقبل العالم الثقافي، الذي تمد إليه العولمة ذراعاً قوية تحركها بكل مهارة وقدرة بالغة، وفي كل اتجاه تتوجه إليه الثقافات المعاصرة غير الغربية، ويعيش مثقفو العالم غلبة قاهرة. وككل الثقافات

(١) محمد عابد الجابري، أيدولوجيا العولمة، الشرق الأوسط العدد ٦٦٤٥ في ١٤١٧/٩/٢٨هـ - ١٩٩٧/٢/٦م.

www.mtenback.com

سواء تلك التي ستقبل الانضواء في إطار العولمة وصيرورتها أو تلك التي ستحاول الانفضاض عنها، وترفض القبول برفع شعارها.

إن بعض الثقافات ذات الفكر البشري والإرشاد الحضاري والتميز التاريخي ستنحاز بدون شك إلى طريق غير طريق العولمة، لأنها لن تقبل الانقياد المباشر ولا الاندماج السهل، ذلك أن الثقافات لها طبيعتها التي تستعصي أحياناً على الذوبان، ولها قاموسها الذي يرفض المغريات، والثقافة نتاج بشري له طبيعة البشر واختلافه، وقابليته للتحدي والمصادمة أو الخضوع والانقياد.

وقد فرضت ثقافة العولمة بأبعادها السياسية والاقتصادية واللغوية التحدي على كل الثقافات.

وهي تضع الخيارات الممكنة لهذا التحدي أمام الثقافات المغزوة، وتضع الخيارات الصعبة للتعامل مع هذا التحدي ومقاومته، ومنها خيار المهادنة والاستسلام، وخيار المواكبة والسير في رحاب الاتجاه العالمي، أو خيار الانكماش والانطواء. تلك خيارات ممكنة وقد تكون مقبولة للغرب وقد يكون التعامل معها على أساس الهيمنة والغلبة مقبولا. أما الخيار الصحيح فهو خيار الموازاة والانطلاق من عقال المحلية والقطرية إلى روح الثقافة وشفافيتها ودفع عجلتها لتسير مع الثقافة الغربية موازية

www.mtenback.com

لها ومتحدية لغلبتها وسلطانها. إن الثقافات ذات العمق الحضاري والإرث التاريخي قادرة على التحدي وقادرة على الصمود وقادرة على الاستقلال بشرط ألا يكون المعوق لها ارتكاسها في نظرتها إلى بعدها التاريخي وموروثها الثقافي حتى يكبلها هذا الموروث، ويربك سيرها، ويعطل حركتها نحو المستقبل. ومانعانيه في ثقافتنا العربية الإسلامية هو ضرب من هذا الإرباك والتردد حيث لا نعرف بالتحديد مانريد من موروثنا الثقافي ومانحتاجه اليوم، ومالا نريده اليوم ولا نحتاجه. إن تقصيرنا بالانتقاء والاختيار هو موضع العجز الذي نعاني منه ونشعر به أمام ثقافة العولمة. الثقافة العربية تستطيع الموازاة والسير إلى الأمام وتستطيع الإضافة الحضارية أو إن شئت فهي تستطيع الاستغناء بذاتها عن ثقافات العالم إلا مالا بد منه للثقافة والحضارة واللغة، لكن السؤال الذي لا نجد له جواباً صالحاً هو: متى نحدد علاقتنا باللغة وبالثقافة؟ ومن أين نبدأ الحاضر الذي ندفعه للمستقبل، وكيف نفرز هذا الكم الهائل من الموروث البشري ونصطفي منه الصالح ونحافظ على اللغة الفصحى فتكون إناءً لما نصطفي من الماضي وماتحدث من مشاركة للمستقبل؟ إذا عرفنا وظيفة اللغة والثقافة استطعنا التعامل الصحيح مع اللغة ومع الثقافة.

www.mtenback.com

المراجع

أحمد صدقي الدجاني :

فكر وعمل، دار المستقبل العربي، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.

برهان غليون :

المحنة العربية، الدولة ضد الأمة، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية ١٩٩٤م.

الوعي الذاتي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية ١٩٩٢م.

البشير بن سلامة :

نظرية التطعيم الإيقاعي في الفصحي.

الثقافة الوطنية: مجموعة بحوث لمجموعة من الكُتّاب.

حسن ظاظا :

الشخصية الإسرائيلية، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

www.mtenback.com

سمير أمين :

نحو نظرية للثقافة، معهد دراسات الفكر العربي، الطبعة الأولى ١٩٨٩م.

الطاهر لبيب :

سوسيولوجيا الثقافة، الطبعة الثانية، الدار البيضاء ١٩٨٦م.

محمد عبدالكريم الجزائري :

الثقافة ومآسي رجالها، الطبعة الثانية ١٩٩٣م.

مرزوق بن تنباك :

الفصحى ونظرية الفكر العامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- مجلة الدعوة.
- المجلة العربية.
- مجلة الفيصل.
- جريدة الجزيرة.
- جريدة الرياض.
- جريدة السياسة.
- جريدة الشرق الأوسط.
- جريدة عكاظ.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهـــرس الأعـــلام

أحمد صدقي الدجاني ١٧
أنتوني سمس ٢٥
اسرائيل ٣٥
البشير بن سلامة ٤٢
بطرس غالي ٧١
برهان غليون ٨٢,٥٠,١٧
البواردي ٥٤
بيل كلنتون ٧٤
بول فيريليو ٧٤
الثبيتي ٥٤
الحريري ١٦
حسن ظاظا ٣٤
حسن الهويمل ٦٧
أم حكيم ١٥
حمد القاضي ٦٨,٦٦,٦٤
الدميني ٥٤
راشد المبارك ٤١
الراغب ١٦
ريجيس ٧٣
سمير أمين ١٨
شوقي بزيع ٥٤-٥٥
صلاح الساير ٤٢
صلاح جاهين ٤٣

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com
www.mtenback.com

الصيخان ٥٤
الطاهر لبيب ١٩,١٧,١٦
طلال حيدر ٥٧-٥٤
عابد خزندار ٧٨
عبد الحميد الكاتب ١٦
عبد الرحمن الأبنودي ٥٧,٥٤,٤٣
عبد السلام المسدي ٨٣,٧٧,٤٧,٤٦
عبد العزيز السالم ٢٠
عبد الله الغذامي ٥٨
عبد الوهاب المالكي ١٠
على حرب ٧٥
العيسى ٥٤
فؤاد حداد ٤٣
فهد عافت ٥٤
القصيبي ٥٤
كثير عزة ٩
كاتب ياسين ٤٣
لويس عوض ٤٣
ماجد محمد الماجد ٤٨
محمد عابد الجابر ٨٩,٨٥
مرزوق بن تنباك ٦٣,٥٢
منصور الحازمي ٥٧,٥٥,٥٤,٥٣
محمد عبد الكريم الجزائري ١٩-١٦
محمد الناصر ٤٠-٣٨
محمد المطوى العروسي ٤٤

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com
www.mtenback.com

فهـــرس

المقدمة ..... ٥ -٧

تعريف الثقافة ١٥-١٧

حاضر الثقافة ٢٢-٢٤

وعاء الثقافة ٢٧-٢٩

حصار الثقافة ٦٤-٦٦

العولمه ٦٩-٧١

المراجع ٩٢-٩٣

الأعلام ٩٥-٩٦

فهرس ٩٧

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

مطابع الحميضي
تلفون : ٤٥٨١٠٠٠ - فاكس : ٤٥٩٢٢١٧

www.mtenback.com

نبذه عن المؤلف

* مرزوق بن صنيتان بن تنباك المسروحي الحربي.

* ولد في بلاد مسروح - المدينه المنورة ١٣٧٠هـ.

* أكمل تعليمه العام في المدينة.

* تخرج من جامعة الرياض - الملك سعود حالياً.

* عين معيداً فيها.

* نال الدكتوراه من جامعة ادبنره - اسكتلاندا - بريطانيا.

* حصل على درجة أستاذ للأدب العربي بجامعة الملك سعود.

العنوان :

ص. ب ١٠٨١٣ - الرياض : ١١٤٤٣

من مؤلفاته :

الفصحى ونظرية الفكر العامي.

الجوار عند العرب

الضيافة وآدابها

رسائل إلى الوطن.

في سبيل لغة القرن

النخبة بين إدِّعاء الوطنية وممارسة التحيز

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

من هذا الكتاب

صاحب الرأي أو المثقف العربي أصبح يعيش مرحلة التأرجح الدائم بين مواقفه الواعية وقناعاته الشخصية، ومايقابل هذا من إلحاح المصالح الآنية التي تعترض طريقه، وتغريه بالانحراف. لقد أصاب المثقف العربي مرض التناقض المعرفي، والتناقض السلوكي والتناقض الذاتي مع نفسه ومع ثقافته.

●●●●●●●●●

●●●●●●

مطابع الحميضي
تلفون ٤٥٨١٠٠٠ - فاكس ٤٥٩٢٢١٧٠

www.mtenback.com